

(العدد الثالث عشر) • محرم - صفر - ربيع الأول ١٣٩٨ هـ

يناير - فبراير - مارس ١٩٧٨ م

مجلة



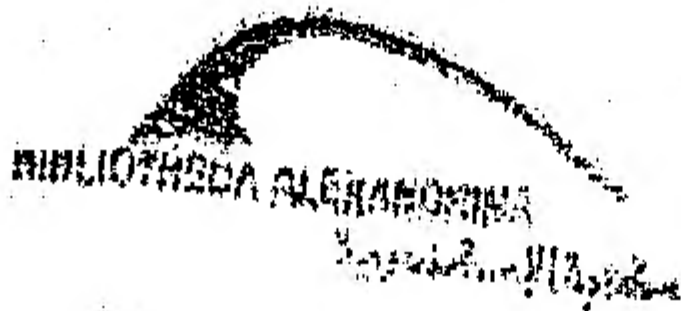
المسائل العامة

فصلية فكرية تعالج شؤون الحياة المعاصرة في ضوء الشريعة الإسلامية

(العدد الثالث عشر) . محرر - صفر - ربيع الأول ١٣٩٨ هـ

يناير - فبراير - مارس ١٩٧٨ م

صاحب الإمتياز ورئيس التحرير المسؤول
الدكتور جمال الدين عطية



دوريات إهداء

العنوان

سعر النسخة ٤٠٠ ق. ل.

الإشتراك السنوي في لبنان: ١٥ ل. ل.

ص. ب. ١١٩٤٢٩ بيروت

مؤقتا: ص. ب. ٢٨٥٧ الكويت

مكتوبات الهدى

كلمة التحرير

في منهج العمل الإسلامى د. جعفر شيخ ادريس ٥

أبحاث

- | | | |
|-----|-----------------------|------------------------------------|
| ٢٣ | د. محمود أبو السعود | الفكر الإسلامى المعاصر |
| ٥٧ | د. محمد سليمان الأشقر | أفعال الرسول فى الأمور الدنيوية |
| ٥٣ | محمد المبارك | المصادر الأصلية للمعرفة فى الإسلام |
| ٦٩ | د. عون الشريف قاسم | القرآن الكريم والحضارة |
| ٨٩ | د. زغلول راغب النجار | أزمة التعليم المعاصر |
| ١٢٩ | د. عزت جرادات | البديل الحضارى للمجتمع المعاصر |

حوار

لجنة تسجيل وتجميع يحيى صالح باسلامة ١٥٣

نقد كتب

التفسير الإسلامى للتاريخ د. عماد الدين خليل
د. عبد الحلیم عويس ١٥٥

١٦٧ أخبار

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

كلمة التحرير

في منهج العمل الإسلامي

القاعدة الأولى : الجماعة ضرورة :

العمل لاعادة بناء الاسلام الكامل من جديد في أى مجتمع من المجتمعات لا بد أن يكون عملاً جماعياً ، فهذا العمل الجماعى جهاد شرعه الاسلام وأملته الضرورة العملية .

هذه قاعدة لا شك فيها ، ويكفى في الدلالة على ضرورتها أنه هكذا فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم حين بدأ دعوته المباركة بمكة .
ومن مبررات هذه السنة النبوية :

(أ) أن المؤمنين — في حكم الاسلام — ليسوا أفراداً منفصلين عن بعضهم . وانما هم أخوة ، وهم — من ثم — جماعة مؤتلفة ذات شخصية متميزة . فمن الطبيعى — اذن — أن يتبع لقاء القلوب هذا : لقاء المشاركة في تحمل أعباء الدعوة الى الله تعالى .

وأن يكون الأفراد الدعاة القلة — في البداية — هم البذرة الصالحة ، والصورة المصغرة للمجتمع الاسلامى المنشود .

(ب) ان التعاون على العمل وسيلة لا يتم واجب الدعوة الا بها
ولا يقوى المؤمنون على مواجهة التيارات المناوئة والمعادية إلا
بها بل لا تتم تربية الدعاة وتدريبهم وتثبيتهم الا بها •

لقد رغب القرآن الكريم والسنة المطهرة في العمل الجماعي
ترغيبا بينا واقترن ضمير (الجمع) - في القرآن والسنة - بالعزائم
على فعل الخير • ودعم الحق •

القاعدة سليمة • بلا ريب •

ولكن بعض الناس غلا في تصويره لأهمية الجماعة ومن الأمثلة
على ذلك :

أولا : قياسها على جماعة الصحابة بمكة بقيادة الرسول صلى الله
عليه وسلم ، من غير مراعاة للفوارق فدعاهم هذا إلى التكفير بكل من لم
ينضم اليهم وكل من خرج منهم لأنه هكذا كان الحال أيام الرسول
صلى الله عليه وسلم •
ذلك تصورهم المغالى

هؤلاء نسوا :

(أ) أن قائد تلك الجماعة كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وأن
طاعته والالتقائه : أمر لا يتم الإسلام للمرء إلا به سواء في حياة
الرسول أو بعد مماته •

(يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي رسول الله ورسوله
واتقوا الله إن الله سميع عليم) الحجرات •

(يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت
النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم
وأتم لا تشعروا) الحجرات - ٢

ترغيبا به - (تؤموا آياتكم الرسول فيخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا)
الحشر - ١

سأل رجل ابن عباس - رضى الله عنهما - عن مسألة فأجابه فيها
بحديث •

فقال الرجل : قال أبو بكر وعمر

فقال ابن عباس : (يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء)
أقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم • وتقولون :
قال أبو بكر وعمر ؟

رفع الملام عن الأمة والأعلام ص ٥٤

ومن هنا لا يجوز قياس قيادة جماعة من جماعات العمل
الاسلامى على قيادة الرسول صلى الله عليه وسلم • فلو كان
ابن عباس أنكر قياس كلام أبى بكر وعمر - رضى الله عنهما -
على حديث الرسول صلى الله عليه وسلم فإن اطراد علة النهى
ينتظم الذين هم دون أبى بكر وعمر فى السبق والفضل والعلم
والايمان فهما خير (خير القرون) •

(ب) ان الواقع الفعلى كان مطابقا للأمر التشريعى فلم يكن هناك
إنسان يدعى أنه مسلم • أو يشهد أن لا إله إلا الله ، وقيم
الصلاة ، وهو لا يعد نفسه عضوا فى تلك الجماعة •
وواقعنا الآن غير ذلك •

فالملايين من الناس ينتسبون الى الاسلام ويصلون ويزكون
ويعصمون ويحجون وهم لا ينتسبون إلى جماعة من الجماعات
الاسلامية • فالحكم عليهم بالكفر - قياسا على أولئك - تحكم
وتعسف وانكار للواقع المائل •

ثانيا : اعتبارها الجماعة التى ورد ذكرها فى بعض الأحاديث
النبوية •

لقد تتبع الامام الشاطبى فى كتابه (الاعتصام) آراء العلماء فى
معنى كلمة الجماعة الواردة فى هذه الأحاديث فوجدها خمسة :

١ — السواد الأعظم من أهل الاسلام •

٢ — جماعة أئمة العلماء المجتهدين •

٣ — الصحابة على الخصوص فهم الجماعة الأولى المدوحة في القرآن والسنة •

٤ — جماعة أهل الاسلام في مقابل غيرهم من أهل الكفر •

٥ — جماعة المسلمين اذا اجتمعوا على الامام الموافق للكتاب والسنة. خلص الامام الشاطبي من هذا الى قوله :

(فهذه خمسة أقوال دائرة على اعتبار أهل السنة والأتباع وأنهم المرادون بالأحاديث) •

يتضح من تلخيص الشاطبي ومن تعليقه : أن الجماعة المذكورة في أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم لا يمكن حصرها في واحدة من الجماعات الاسلامية القائمة الآن • والمعروفة بأسمائها وقادتها ونظمها وأعضائها •

فاعتبار جماعة من هذه الجماعات هي جماعة المسلمين واعتبار الخسارج منها كافرا ، أو مفارقا للجماعة ، أو ميتا ميتة جاهلية : كل هذا تعسف لا مبرر له ، وتحجير لأمر جعله الله واسعا •

ان الجماعة المقصودة في هذه الأحاديث ليست عددا محصورا من الناس وانما هي مجموعة أوصاف كل من اتصف بها فهو من جماعة المسلمين ، وكل من أخل بشروطها فهو ليس منهم ، هل يعني هذا أنه كفر كفرًا يخرج عن الملة الاسلامية ؟

إن هذا يعتمد على مدى الاخلال بتلك الشروط ؟ فالمبتدعون — حسب تلخيص الشاطبي — لا يخلون في هذه الوحدة ، ولكنهم ليسوا جميعا بكفار •

إن أهل السنة لم يكفروا بالخوارج ولا الشيعة ولا المعتزلة • مع أنهم يرون أنهم مبتدعون •

وكما غلا الناس في حصر معنى الجماعة وتضييقه وتنزيله على جماعة بعينها من الجماعات القائمة اليوم فقد غالوا كذلك في تفسير بعض العبارات الواردة في أحاديث الجماعة هذه •

من ذلك :

(أ) وصفهم : للذي يخرج عن جماعتهم بأنه خرج على الجماعة • مع أن عبارة (خرج على) تعنى المقاومة المسلحة لا مجرد المفارقة والابتعاد •

وحتى هذا الخروج المسلح على الجماعة المسلمة المبايعة لحاكم عادل لا يعتبر - في حد ذاته - كفرا • وإن اعتبر جريمة كبيرة •

والدليل على ذلك قوله تعالى : (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله ...) فسامهم الله مؤمنين رغم اقتتالهم •

والدليل عليه أيضا أن سيدنا عليا - رضى الله عنه - لم يكفر الخوارج رغم خروجهم عليه • ومع وجود الأحاديث الصحيحة الواردة بشأن ضلالهم •

وفي القرآن الكريم ما يدل على أن الذي لا يلتحق بجماعة المسلمين - بمعنى الجماعة المبايعة لإمام عادل - ليس بكافر • وإن كان آثما •

يقول تعالى في سورة الأنفال - الآية ٧٢ :

(والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر إلا علي قوم بينكم وبينهم ميثاق • والله بما تعملون بصير) •

يقول الأستاذ سيد قطب تعليقا على هذه الآية وهو يفسر سورة الأنفال في كتابه (في ظلال القرآن) :

« ثم وجد أفراد آخرون دخلوا في هذا الدين عقيدة ولكنهم لم يلتحقوا بالمجتمع المسلم فعلا . لم يهاجروا الى دار الاسلام التي تحكمها شريعة الله وتدبر أمرها القيادة المسلمة ولم ينضموا الى المجتمع المسلم الذي أصبح يملك دارا يقيم فيها شريعة الله ويحقق وجوده الكامل ، بعد ما تحقق له وجوده في مكة نسبيا بالولاء للقيادة الجديدة والتجمع في تجمع عضوى حركى مستقل ومنفصل عن المجتمع الجاهلى ومواجهة له بهذا الوجود : المستقل المميز .

وجد هؤلاء الأفراد سواء في مكة أو في الأعراب حول المدينة ، يعتنقون العقيدة ولكنهم لا ينضمون للمجتمع الذي يقوم على هذه العقيدة ولا يدينون فعلا دينونة كاملة للقيادة القائمة عليه .

وهؤلاء لم يعتبروا أعضاء في المجتمع المسلم ولم يجعل الله له ولاية - بكل أنواع الولاية - مع هذا المجتمع لأنهم بالفعل ليسوا من المجتمع الاسلامى .

ولقد حرصت على أن أنقل رأى الأستاذ سيد قطب بالذات لأن له عبارات أخرى . اذا أخذت على ظاهرها - كما أخذها الكثيرون من قرائه - فانها تدخل ضمن هذا الغلو الذي أتقده .

ولكن كلامه هنا - جد واضح - في أنه لا يعتبر الذى لا ينضم الى جماعة المسلمين كافرا .

(ب) تفسيرهم لعبارة (مات ميتة الجاهلية) بأنها تعنى الكفر والردة . مع أن العلماء السابقين اعتبروها كقول الرسول صلى الله عليه وسلم لأحد الصحابة (انك امرؤ فيك جاهلية) وفسروها بأنها ميتة أشبه ما تكون بميتة الجاهليين الذين لا يخضعون لسلطان ولا يبايعون إماما .

ثالثاً : الابتداء من حيث بدأ الرسول صلى الله عليه وسلم •
والمرور بكل المراحل التي مر بها حتى يتكون المجتمع الاسلامي الجديد
كما تكون المجتمع الاسلامي القديم بالمدينة •

وهذا أيضا قياس مع الفارق • واغفال للواقع •

أفكلما تكونت جماعة جديدة للدعوة الى الاسلام اعتبرت نفسها
جماعة المسلمين • وبدأت من الصفر كما بدأ الرسول صلى الله عليه
وسلم مغفلة جهوده هو وجهود المسلمين من بعده • بل وجهود
الجماعات الأخرى المعاصرة لها والتي سبقتها في ميدان الدعوة وأثرت
في واقع الحياة ؟

القاعدة الثانية : التركيز على العقيدة لا يعنى اهمال الجوانب الأخرى •

القاعدة الثانية ، التي صحت جوهرها وعلمها • وأخطأ الناس في
فهمها وتطبيقها هي : قاعدة التركيز على العقيدة •

ان صحة العقيدة شرط في صحة الإسلام ، وصحة العمل الاسلامي •
فلا يتقبل الله عملاً الا اذا كان منبثقاً من عقيدة سليمة خالصة •

هذه قاعدة صحيحة •

لكن أناساً من المسلمين غلوا في دينهم وفي تفسير هذه القاعدة •
وما زالوا يتخرون الغلو حتى دعوا الى هجر كل شيء ابتغاء التركيز على
العقيدة ومحوها عن الوجدان •

هذا هو موقف قليل العلم والفقهاء •

وهو كذلك موقف سلبى بمقاييس العمل والجهاد •

ومقولتهم في هذا هي : ان منهج الأنبياء عليهم صلوات الله
وسلامه هو الابتداء بدعوة الناس الى تصحيح العقيدة حتى اذا

ما صحت وتركزت في القلوب جاءت تفاصيل التشريع بنيانا معتمدا على
أساسها المتين .

هذا كله صحيح .

انما جاء الخطأ من عدة أوجه .

فالغلو هنا هو نتيجة الغلو في تفسير القاعدة الأولى . وذلك قول
البعض : يجب أن نبدأ بالعقيدة كما بدأ الرسول صلى الله عليه وسلم
فلا ندعو الناس إلا إليها . لا ندعوهم إلى تفاصيل النظم الاقتصادية
أو السياسية أو القانونية .

لأن قبول هذه النظم تابع للتصديق بأنها من عند الله . والذي
يؤمن بأنها من عند الله لن يتلجلج في قبولها . ولن يحتاج الى أن نبين
له محاسنها أو فضلها على غيرها من النظم .

وهذا التصور يهدم أو ينقض العرى الباقية من عرى الاسلام .
١ - فهذا الكلام اذا أخذ بحرفيته ، فانه يؤدي الى نتائج شنيعة فهو
يعنى فانه

ألا تتعرض لتفاصيل الصلاة والصوم والزكاة والحج
والأحوال الشخصية ولا ندعو الناس الى ترك الخمر والميسر
والزنا والظلم الاقتصادي والسياسي . ولا نلزم الدعوة
أنفسهم بشيء من هذا ولا نقرأ القرآن المدني ولا تتدبره ولا
أحاديث الرسول بالمدينة ولا نعرف شيئا عن سيرته بها .

واذا كان هذا شئنا وكان لابد من الحديث عن هذه
التفاصيل فما الذي يمنع من الحديث عن تفاصيل الاقتصاد
والسياسة ؟ ما الفرق بين هذا وذاك ؟ .

٢ - الدعوة الى توحيد الله تعالى لم تكن - حتى في البداية - منفصلة
عن الإيمان بالدار الآخرة والإيمان بصدق الرسول والإيمان بأن

القرآن وحى من عند الله • بل لم تكن منفصلة عن الدعوة لمكارم الأخلاق وحسن معاملة الناس •

وكل هذه أمور يحتاج الذى لا يؤمن بها الى أدلة وبراهين وآيات تبين له أنها حق •

فاذا أردنا أن تنهج النهج النبوى بمكة فلا بد من أن نحدث الناس فى كل هذه القضايا ، لكى نبين لهم أن القرآن كلام الله تعالى • لا بد أن نريهم اعجازه • وإذا كان العرب الذين نزل عليهم القرآن الكريم قادرين على تبين اعجازه البيانى فان أكثر الناس اليوم عاجزون عن رؤية هذا الإعجاز ولكن حكمة الله تعالى قضت ألا يكون اعجاز الرسالة الخاتمة مقصورا على الاعجاز البيانى الذى كان مناسباً للأمة التى خوطبت بها أول مرة •

لقد جعل الله إعجاز القرآن أمراً مستمرا تراه كل الأجيال على مدى الزمان وامتداد الأيام • ومن هذا الاعجاز : الهدى الذى جاء به القرآن الكريم وهذا الهدى يشمل : الهدى الاقتصادى والسياسى والأخلاقى والنفسى والاجتماعى • الخ

لقد كان الأنبياء - فيما مضى - يدعون أممهم الى التوحيد ويربطون هذه الدعوة بالمسائل التى تهم أممهم • فدعوة شعيب عليه السلام - ارتبطت بمشكلة اقتصادية (وإلى مدين أخاهم شعييا قال : يا قوم اعبدوا الله ما لکم من إله غيره ولا تنقصوا المكيال والميزان انى أراکم بخير واني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم) (هود - ٨٤) •

ودعوة موسى عليه السلام ارتبطت بمشكلة سياسية : (فأتيا فرعون فقولا : انا رسول رب العالمين ان أرسل معنا بنى اسرائيل) (الشعراء - ١٦ - ١٧)

ولكن دعوة محمد صلى الله عليه وسلم جعلت قرآنا محفوظا وسنة مبينة • دعوة فيها أصول الحلول لكل مشاكل الانسان

والداعية البصير يتخير من هذا الهدى الشامل الذى يجده بين يديه الأمور التى يراها تشغل بال قومه وزمانه فيربطها بدعوة التوحيد وغرضه من هذا ليس هو - كما يخشى البعض - دعوتهم إلى الالتزام بهذه القضايا مستقلة عن العقيدة ، بل غرضه أن يجعلها ذريعة يعطف بها قلوب مخاطبيه إلى الإيمان بالله ، وبرهانا على أن القرآن كلام الله •

٣ - القول بأن الانسان حين يؤمن بالله تعالى ويكون مسلما لا يحتاج لأن نبين له محاسن ما يأمره الله به أو مساوئ ما ينهاه عنه : قول يبدو فى ظاهره صحيحا ولكنه غير صحيح •

أولا : هنالك فرق بين الايمان المجمل والايمان المفصل • فرق كبير بين من يؤمن على وجه الإجمال : بأن كل ما أمر الله به فهو خير وكل ما نهى عنه فهو شر ، وبين من يعرف - بالأدلة العقلية ، أو التجربة الحسية - الخير الكامن فى أمور معينة أمر الله بها ، وأمور معينة نهى الله عنها ، إن الايمان الصحيح هو الايمان الذى يقوم على العلم • وإذن فكلما علم الانسان وآمن بما علم كلما ازداد إيمانه والايمان - كما هو معروف - يزيد وينقص •

ثانيا : أن المعرفة نفسها درجات فالمعرفة بمجرد الخير ، غير المعرفة بالدليل والتجربة ، حتى لو كان المخبر هو الله تعالى •

قال تعالى : (ولما رجع موسى الى قومه غضبان أسنفأ قال : يسما خلقتموني من بعدى أعجلتم أمر ربكم وألقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجره اليه) (الأعراف - ١٥٠)

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم معلقا على هذه القصة :

(يرحم الله موسى : ليس المعائن كالمخير أخبره ربه عز وجل أن قومه فتنوا بعده فلم يلق الألواح فلما رأهم وعانئهم ألقى الألواح) (أخرجه ابن أبى حاتم عن ابن عباس مرفوعا : أنظر تفسير ابن كثير)

وأبو الأنبياء إبراهيم — عليهم جميعا صلوات الله وسلامه — قال
(رب أرني كيف تحيي الموتى ؟ قال : أو لم تؤمن ؟ قال : بلى ولكن
ليطمئن قلبي) (البقرة — ٢٦٠)

ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم معلقا على موقف إبراهيم
هذا (نحن أحق بالشك من إبراهيم) (رواه البخاري عن أبي هريرة)
يقول ابن كثير : (ان الشك المذكور هنا ليس الشك المعهود وان
إبراهيم عليه السلام أراد وكما ذكر البعض — أن ينتقل من درجة علم
اليقين إلى درجة عين اليقين •

ثالثا : لو كان الأمر كما يصوره هذا الغلو في تفسير الايمان
لجاءت آيات الأمر والنهي في القرآن الكريم كالأوامر العسكرية غليظة
جافة لا تبين حكمة أو سببا ، ولا تعلل أمرا أو نهيا ، ولا تسلك
الأسلوب الذي تلين له القلوب • ولكن الواقع أنها تفعل كل هذا •

انظروا مثالا في قوله تعالى : (يأيتها الذين آمنوا كتب عليكم
الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون أياما معدودات
فمن كان منكم مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر • وعلى الذين
يطيقونه فدية طعام مسكين • فمن تطوع خيرا فهو خير له وأن تصوموا
خير لكم ان كنتم تعلمون) •

(شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من
الهدى والفرقان فمن شهد منكم الشهر فليصمه • ومن كان مريضا أو
على سفر فعدة من أيام أخر • يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر
ولتكملاوا العدة ولتكبروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون)
(البقرة — ١٨٣ — ١٨٤ — ١٨٥)

ولنحاول فقه هذه الآيات

(كما كتب على الذين من قبلكم) اشعار بأن ما أمرتم به ليس
شيئا جديدا • وانما هو أمر قد جربه الناس من قبلكم واحتملوه •

(لعلكم تتقون) • فالصيام ليس مأمورا به لما فيه من المشقة ،
ولكن لأن هذه المشقة وسيلة لا بد منها لنيل التقوى التى هى هدف كل
مؤمن بالله تعالى •

(أياما معدودات) • فأتم لستم مطالبين بصيام الدهر كله
ولا نصفه وانما هو شهر واحد • انها أيام معدودة وتنقضى •

ومع هذا (فمن كان منكم مريضا أو على سفر فعدة من أيام
آخر) •

ومن كان يتحملة ولكن بمشقة كبيرة • فليفطر وليفد •

والشهر المطلوب منكم صيامه ليس شهرا كسائر الشهور ، انه
(شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى
والفرقان) •

وفى بقية السياق مزيد من بيان الحكم والتعليل • ولكن لعل فيما
ذكرنا كفاية لبيان ما نريد •

رابعنا : اننا انما نعرف الله تعالى بأسمائه الجسنى وصفاته •
والذى يدلنا على أسمائه وصفاته هو مخلوقاته وآياته والآؤه • واذن
فكلما عرفنا الصلة بين شىء بما أمر به أو نهى عنه وبين حكمته تعالى
أو رحمته أو عدله أو فضله كلما ازدادت معرفتنا بالله تعالى وازداد
إيماننا به وحبنا له •

ولهذا فان القرآن الكريم لا يقتصر على بيان الثواب والعقاب
الأخرويين • بل يبين لنا آثار الإيمان ومنافعه فى هذه الحياة الدنيا
أيضا • ويحذرننا من الكفر ويبين لنا أضراره فى هذه الحياة الدنيا •

(ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء
والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون) (الأعراف - ٩٦)

(ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى
الصالحون) (الأنبياء - ١٠٥) •

(ولكم في القصاص حياة يا أولى الألباب لعلكم تتقون)
(البقرة - ١٧٩)

خامسا : ولو كان هذا الكلام صحيحا • لما كان هناك مجال
لسهم المؤلفه قلوبهم •

فاذا جاز أن تؤلف قلوب الناس بالمال حتى تنعطف الى الايمان
فلماذا لا تؤلف بالحديث عن المال أى عن هدى الاسلام فى شئون
الاقتصاد وهديه فى السياسة •

سادسا : هذا النوع من التفكير أورث بعض الدعاة نوعا من الجفاء
والغلظة فى مخاطبة الآخرين مع أن الله سبحانه وتعالى يقول لرسوله
صلى الله عليه وسلم :

(ولو كنت فظا غليظ القلب لاتفضوا من حولك) (آل عمران -
١٥٩)

ان هذه الآية توضح انه لا يجدى مع الفظاظه منطق ولا بيان
حق • ولا أى نوع من الاغراء •
انها وحدها كافية لفض الناس الخيرين عن الداعية مهما كانت
رسالته ومهما كانت حجته •

يقول الشيخ أبو عبد الله محمد بن ابراهيم الوزير فى كتابه :
(إيثار الحق على الخلق) معلقا على آية : (لا تجد قوما يؤمنون بالله
واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله) (المجادلة - ٢٢) •

(هذا كله فى الحب الذى هو فى القلب والمخالطة لأجل الدين •
وذلك للمؤمنين المخلصين بالاجماع • وللمسلمين الموحدين اذا كان
لأجل اسلامهم من أهل السنة (كما يأتى) وأما المخالطة والمنفعة وبذل
المعروف وكظم الغيظ وحسن الخلق واکرام الضيف ونحو ذلك
فيستحب بذله لجميع الخلق إلا ما كان يقتضى مفسدة كالدلة فلا يبذل
للعُدو فى حال الحرب كما أشارت اليه الآية (لا ينهاكم الله عن الذين
لم يقاتلوكم فى الدين) (المتحنة - ٨) •

(وصاحبهما في الدنيا معروفا) (لقمان - ١٥)

(فإن عصوك فقل إني بريء مما تعملون) (الشعراء - ٢١٦)
فأمره بالبراءة من عملهم القبيح لامنهم •

وهو يرى أن المسلم ليس منهيًا عن أن يحب العاصي لخصلة خير فيه ولو كان كافرًا •

وعصيان المسلم لا ينفي حبه لله ورسوله (لا تعينوا الشيطان على أخيكم أما إنه يحب الله ورسوله ؟) رواه البخاري • والرسول صلى الله عليه وسلم كان شديد الحرص على هداية قومه ، كثير الحزن على إعراضهم - بكسر الهمزة - (فلا تذهب نفسك عليهم حسرات) (فاطر - ٨) (فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا) (الكهف - ٦)

كنت أمشي مع أحد الأخوة المسلمين السود في أمريكا • فطفق يعبر عن حرصه الشديد على هداية قومه ورغبته في انقاذهم مما هم فيه •
فالتفت إليه فاذا عيناه تذرفان
إنها دمة الرحمة وحب الخير للناس •

القاعدة الثالثة : اخذ الاسلام كاملا : ١٠٠٪ او لا شيء •

ومنهم من ينادى أو يخير المسلمين بين أمرين :

إما أن يأخذوا الاسلام كله

وإما أن يدعوه كله

وهذا غلو حمل أصحابه على الضيق بكل بادرة للخير • واساءة الظن بكل جزئية من جزئيات الحق والاصلاح • أنهم يريدون الغاء كل عمل إسلامي ليؤسسوا عملا إسلاميا كاملا •

ان النهج السليم أن نرحب بكل خطوة خير - ولو كانت من
كافر - وأن نطالب كل فاعل خير بالمزيد حتى تدخل في شرائع الاسلام
جميعا .

فلقد دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم الى التوغل في الدين
برفق :

والرفق هنا يعنى :

١ - تناول الدين برفق .

٢ - التدرج في السعى نحو الكمال الممكن .

وانه لمن المشادة الفكرية للدين أن يرفع شعار :

إما الاسلام كله ... وإما تركه كله .

وإنه لمن المشادة العملية للدين : أن يحاول أقوام تطبيق هذا الشعار
وجعله سلوكا عمليا .

وانهم مغلوبون ان هم فعلوا ذلك (ولن يشاد هذا الدين أحد الا
غلبه) .

الطريقة الصحيحة هي : أن نعتبر أنفسنا بنائين نشيد صرح الاسلام
لبنة لبنة ، وأن نعد كل عمل اسلامي : اضافة لبنة لهذا البناء .

لئن أريد بشعار أو فكرة (خذوا الاسلام كله أو دعوه كله)
الإيمان الكامل بكل ما جاء في القرآن الكريم والسنة المطهرة فهذا
حق . لأتينا مكلفون بالإيمان بالكتاب كله .

ولعل الخلط بين هذه القضية وبين تطبيق الإسلام - وفق
الاستطاعة - وهو علة الغلو والفهم الخاطيء .

القاعدة الرابعة : الحذر من كيد الأعداء :

هذه قاعدة سليمة اكتنفها الغلو في الفهم والتطبيق .

فالحذر - كيقظة نفسية وعقلية وسياسية - مطلوب في الحرب
والسلم .

(يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم فانفروا ثبات أو انفروا جميعا) (النساء - ٧١) •

(وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله اليك) (المائدة - ٤٩) •

لكن الاسترسال الوهمي مع الحذر : غلو يحقق أهداف الأعداء من حيث أراد أصحابه أن يحبطوا كيد الأعداء فالغلو في الحذر يحوله الى مخاوف تقوض العزيمة • وتربك كل عمل • وتشيع التطير والجزع في صفوف الاسلاميين •

وهذه غاية يسعى اليها المناوئون للاسلام •

ومن أمثلة هذا الغلو في فهم وتطبيق هذه القاعدة :

* كيد الأعداء هو سبب تخلفنا وسبب كل شر أصابنا في ديننا ودنيانا •

* الشعب طيب خير •

* الحكومات وحدها هي التي تعيق تقدم الاسلام والمسلمين •

* والحكومات فريسة للاستعمار والشيوعية •

* والشيوعية والاستعمار فرائس للصهيونية العالمية •

هذه الوسوسة المعقدة - الناتجة عن غلو في فهم الحذر - أصبحت كالعقيدة المفروغ من صحتها وجدواها •

ونستطيع القول : بأن هذا التصور يتناقض مع منهج القرآن في تحليل أسباب الضعف والهزيمة والمصائب • فالقرآن الكريم يرد الكوارث والمصائب التي تحيق بالإنسان إلى أسباب داخلية • نابعة من نفسه ومن انحرافه ومن اخلاله بشروط الاستقامة ومن تجاهله لسنن الله تعالى في المجتمع البشري :

(وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفوا عن كثير)
(الشورى - ٣٠)

(أولما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا قل
هو من عند أنفسكم) (آل عمران - ٦٥)

(فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم) (المائدة - ٤٩)
(ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض
الذى عملوا لعلهم يرجعون) (الروم - ٤١)

(ويوم حنين اذ أعجبتمكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا وضاقت
عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين) (التوبة - ٢٥)

نعم هناك أسباب خارجية • وهى أسباب حقيقية ولكنها ثانوية •
وهذه الأسباب لن تضرنا شيئا اذا صحت الاستقامة على دين
الله • وصح فقها للدين • وصح تطبيقنا له • وصح عزمنا على التفتيش
عن أسباب ضعفنا داخل أنفسنا أولا •

(كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله) (المائدة - ٦٤)
(لن يضرركم الا أذى ••) (آل عمران - ١١١) •
(وان تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا) (آل عمران -
١٢٠)

(ان الله يدافع عن الذين آمنوا ••) (الحج - ٣٨) •
(ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين) (الأنفال - ٣٠)

فاذا فقها هذا فقد ترتب على هذا الفقه :

١ — أن نصارح الشعوب بأنها هى سبب الهزائم والتخلف •

٢ — وأن نكثف العمل فى اصلاح الشعوب ذاتها •

٣ — أن نسعى لإصلاح الحكم باعتباره صورة من المجتمع أو جزءا من واقع الشعوب •

٤ — لا نكتفى بمجرد إلقاء الاتهام ، بل نبذل جهدا حقيقيا في التحقيق والتثبت • وجهدا ايجابيا في تغيير الواقع •

٥ — أن نستفيد من تضارب مصالح الخصوم متخلين عن النظر اليهم باعتبارهم شيئا واحدا (تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى)

٦ — أن نحرر القلب الاسلامى من ضغوط الوسواس والتطير والاستسلام لفكرة القوى الخفية التى تدير العالم •

فهى ضغوط أصابت الكثيرين بالشلل أو بالتردد والارتباك •

د • جعفر شيخ ادريس

البحاث

الفكر الإسلامي المعاصر

مضمونه ومستقبله

د . محمود أبو السعود

* وله من في السموات والأرض كل له قاتنون - وهو الذي يبدأ
الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه ، وله المثل الأعلى في السموات والأرض
وهو العزيز الحكيم *

شرعة الاسلام

مسلمات :

١ - افترض الداعون الى هذه الندوة (١) ان العالم الاسلامي
اليوم يتعثر في خطوه نحو نهضة جديدة اثر فقدانه لحضارته التي
تقوضت منذ أكثر من خمسمائة عام ، وان أهم أسباب تكفئه : هو ذلك
التيه الفكري الذي يخيم عليه فهو حيران بين اسلاميته التي يؤمن
بصحتها وأحقيتها وصلاحها كأساس لحضارته المستقبلية ، وبين المذاهب
الفلسفية المادية : رأسمالية واشتراكية ، التي تسود العالم كله ، بما في ذلك
دول المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها ، وهذه قضية مسلم بها عند
الغالبية من الناس .

(١) هذا البحث قدم الى ندوة خاصة للفكر الاسلامي

٢ — والمسلمة الثانية هي عدم وضوح « الإسلامية » بالدرجة التي يمكن معها للمسلم أن يجابه المذاهب السائدة ، وأن يقرعها بالحجة حتى يظهر عليها • ان أشد المسلمين اقتناعا بإسلاميته ليجد الحرج الشديد حين يضطر الى مناظرة يطلب فيها منه أن يبين كيف سيحل تطبيق مذهبته مشاكل الحكم والاجتماع والاقتصاد والقيم الأخلاقية في مجتمع القرن العشرين الذي يتميز بالعلم التجريبي والتجمعات البشرية الهائلة والتقنية الآلية والاتاج الصناعي المهول ، هذا الحرج قائم يحسنه العام والخاص من المسلمين •

٣ — والثالثة التي لا نحيطُ عنها هي : أنه لن تقوم للمسلمين حضارة ولن يلتئم لهم شمل بل لن يستطيعوا أن يتميزوا في الخلق كجماعة لها رسالتها ما لم تتوحد لديهم فكرة « اسلاميتهم » وتبضح معالمها بحيث تصبح دستور العالم وعقيدته ، ويعيش من أجل تحقيقها ويحس في قرارة نفسه خسارة الإيمان بها والسعادة الغامرة في الجهاد في سبيلها وحتى تصبح تلك الإسلامية المعين الثرى الصافي الذي يستقى منه العلماء والمصلحون والمشرعون حين يعالجون جوانب الحياة المختلفة ويرسمون للمجتمع الجديد نظم حياته المعاشية ، واعين مشاكل العصر ، ومجيبين على ما تطرحه من أسئلة وقضايا مستحدثة •

هذه مسلمات ثلاث • لا أحسبني في حاجة إلى التدليل عليها ، أو تحليل العوامل التي أدت اليها فقد كتب في ذلك الكثير • وكل قول في هذا الموضوع معاد • لذلك أعرض مباشرة مشروع صياغة « الإسلامية » محاولا سدا ما يوجد من نقص ، وتجلية ما هو شائع من تيه ، مستعينا بالله القوى المتين مستعصما ، به متوسلا اليه : أن يهديني الى سبيل قد يوصل من قريب أو بعيد إلى الأمل المنشود •

منهج البحث :

ان المتفحص للبحوث الإسلامية التي كتبت في هذا القرن يجد : أن غالبية الباحثين يتناولون موضوعاتهم بمنجمة ، بمعنى : أن من يكتب في

الاقتصاد مثلا يحاول رسم نظام اقتصادى اسلامى قائم بذاته غير منبثق من الفلسفة الاسلامية أو المذهبية الاسلامية الشاملة وسرعان ما يجد أن سبيله فى بحثه قد قاده الى متاهات تؤدى به فى النهاية اما الى تعميم لا يفيد واما الى محاولات فاشلة تهدف الى المواءمة بين أوضاع قائمة مستقرة تحت مذهبيات غير اسلامية وبين مبادئ اسلامية ثابتة بالنص فى الكتاب والسنة •

هذا التناول الجزئى المتشعب كان سببا مباشرا فى تشتت الأفكار العلمية التى انصبت على دراسة نفس الموضوع ، ذلك : أن كل باحث سلك طريقا معينا من خلال خصوص فهمه للاسلامية المحدودة - ان لم تكن المجهلة - ففرقت بهم السبل ولم يوفقوا الى وحدة الرأى ولم يجمعوا على حل موحد لما عالجوه من قضايا ومشاكل •

الرأى عندنا : إنه ما دمنا نؤمن بأن الاسلامية فلسفة حياة تفسر الكون ووجوده والإنسان وغايته ، وترسم للحياة صورا : ان حقيقتها فقد حققت الهدف من وجودها واتسقت مع الحكمة من خلقها • ما دمنا نؤمن بهذا فيجب أن نبدأ بتقرير هذه الاسلامية وفهم فلسفتها ، ومعرفة مذهبيتها التى تمدنا بالقواعد الأساسية التى تقوم عليها مختلف النظم التى تضبط حياة البشر فى هذا الكون • سواء منها ما كان منصبا على علاقة الانسان بخالقه أم علاقته بمن حوله من الخلق ، والنظم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية • والقيم الجمالية فى مجتمع معين انما تستمد قواعدها الأساسية من المثالية أو المذهبية التى تسود هذا المجتمع وهى فى نفس الوقت ترسى من دعائم هذه المثالية حين تطبق فى واقع الحياة •

من أجل هذا لا تقبل النظم السياسية أو الاقتصادية الشيوعية فى بلاد ديمقراطية رأسمالية ولا العكس •

..... ومن أجل هذا أيضا : ينبذ الإسلام أى نظام من هذه النظم (مستوردة) من بلاد اتخذت لنفسها عقيدة ومذهبية غير الاسلام •

وليس أخطر على الإسلامية من تطعيمها بنظم تابعة من غيرها من العقائد
اذ لن يفىء مثل هذا الخلط إلا السم في الجسد والخسارة في العمل
والفساد في الروح •

سنبدأ إذن بتحديد المثالية الإسلامية ، ويعنى بها : الكلية التي
يقول بها الإسلام ، والتي تفسر للإنسان هذا الخلق كله ، وتحدد دور
الإنسان فيه ، وتربطه بالقوة الخالقة له ، ثم ترسم له الغاية من وجوده
والسبل الرئيسية التي سنتها الفطرة للوصول الى هذه الغاية ، وسنطلق
عليها لفظ « شرعة » تميزا لها عما سواها لما اختص به الإسلام من أصالة
واتفراد في الجوهر والمظهر •

ونحب أن نشير في مستهل هذا البحث إلى : أن الإسلامية ليست هي
المثالية الخيالية أو الطوبائية (Utopia) التي يعرفها دارسو الفلسفة
والتي يعيبها بعدها عن واقع الانسانية وما ركب فيها من غرائز ونزعات
وما يعتورها من نقص وقصور • إذ الإسلامية شرعة واقعية أبعد ما تكون
عن خيال الشعراء ومن اليهم من الحالمين •

وسنتحدث عن شرعة الاسلام حين نطبقها على واقع الحياة البشرية
باعتبارها « مذهبية » (Doctrine) تستمد ركائزها من فلسفة
المثالية العامة والحق الذي لا مرية فيه أن الاسلام أقرب الى فكرة
« المذهبية » منه الى المثالية فهو هدى من الخالق سبحانه وتعالى الى
البشر ينير لهم سبل الخير ويرسم لهم قواعد السلوك وقوانين المعاملات ،
كل ذلك في إطار فلسفته العامة الواضحة • من أجل ذلك : كان من
الصعب فصل المثالية عن المذهبية • اللهم إلا إذا تحرينا التجريد الفلسفى
عند الحديث عن المثالية ، ولسنا نحسب أن في ذلك أى عناء ، فالأحرى
إذن أن نعالج « الإسلامية » مثالية ومذهبية كشرعة متكاملة ، وأن
نصرف النظر عن التقسيم المألوف عند المعاصرين من فلاسفة الغرب ،
فلهم دينهم ولنا دين •

وإذ كان لب المقصود من هذا البحث : اخراج المذهبية الإسلامية
بأسلوب العصر ، واذا غلب على الناس في هذا الزمن المنهج التجريبي

بشقيه الاستقرائي والاستنباطي ، وأصبح للمنطق العقلي - بذلك - مركز الصدارة في تقرير ما هو حقيقة في ذاته ، لذلك تعمدنا أن نورد سياق المذهبية الإسلامية في شكل علمي ، والعلم لدينا : معرفة الحق بدليله ، مستعينين بالمدخل التجريبي والاستخلاص المنطقي لاقامة الدليل على الحق الذي هو لدينا كمال الاسلام كشرعة تفسر معالم الكون وتؤدي دون سواها الى تحقيق الغاية من حياة الانسان ووجود الكون كله على مر العصور .

وليس في ذلك من حرج :

اذ ليس يخفى أن العلوم الدينية وهي « فقه طريق الآخرة انما تدرك بكمال العقل وصفاء الذكاء . والعقل أشرف صفات الإنسان . اذ به تقبل أمانة الله ، وبه يتوصل الى جوار الله سبحانه »^(١) على أن هناك farkا واحدا بين منهجنا والمنهج التجريبي البحت ذلك اننا نؤمن بما لا سبيل إلى نكرانه من : أن الإنسان مادة وروح ، وهذان العنصران وإن اتحدا في الإنسان الحي ، إلا أنهما مختلفتان تماما في ماهيتهما ، ونحن نكرر ان المادة سابقة على الروح أو ان الروح ليست الا نتاج تفاعل لطاقة صادرة عن مادة ، فذلك مجرد فرض علمي قال به الماديون لم يرتق بعد الى مرتبة « النظرية » دع عنك الحقيقة العلمية الثابتة .

والروح لدينا (واعية مدركة) ، ولهذا نعتبرها مصدرا من مصادر المعرفة . وان خفى علينا كنهها وطرائق اكتسابها لهذه المعرفة ، وليس في ذلك ما يعيب : اذ أن جهلنا بكيفية عمل العقل - وهو مادي لا يتصور الا ما كان ماديا - هذا الجهل لا يبرر الغاء العقل وليس مطعنا في النتائج والمعارف التي يتوصل اليها .

كذلك تعمدنا أن نجتهد في سوق الكليات التي جاءت بها شرعة الاسلام دون أن نورد الآيات والأحاديث التي تستند عليها هذه الكليات

(١) احياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي ج ١ ص ١١ .

مع سهولة هذا التخريج ووضوحه • وإنما دعانا إلى ذلك : تنكر كثير من المسلمين للنصوص الموحى بها بدعوى الاختلاف فى التفسير والتأويل أو بدعوى عدم اليقين من صحة السند فى الأحاديث الشريفة •

وهذا أمر مؤلم مؤسف ، ولكنه واقع مرير • وعسى الله أن يهذى من ضل عن سبيله •

شرعة الاسلام

١ - وحدة الخالق ووحدة المخلوقات :

تقوم شرعة الإسلام على أساس عقدي منطقي ألا وهو (مبدأ توحيد الخالق ووحدة الكائنات) • والإسلام فى ذلك قد بين العقائد والأديان • اذ لا يكاد المرء يجد بين أحكامه أمرا ينفر منه المنطق السليم أو يجحده العقل المقسط •

هناك وجود تعكسه الحواس ، فهو وجود حسى محدود ، اذ غير المحدود مطلق والمطلق فوق مرتبة الحواس •

وهنا وجود يدرك بغير الحواس الخمس : إما بآثاره المحسوسة أو بالشعور به • فنحن ندرك وجود الحياة بتتبع الحركة المحسوسة فى الكائن الحى • ونحن ندرك الحب والبغض ، والسماحة والظن ، والكرم والبخل ، والخير والشر ، وغير ذلك من القيم بشعور غرزى مستتر لا يدرك العقل كنهه ، لأن العقل لا يدرك إلا ما تعكسه الحواس الخمس ، والحواس لا تدرك القيم المعنوية •

ويدلنا منطق البديهة على : أن الموجود لا بد له من موجد أو خالق ، وخالق الموجودات كلها - فى دين الله - هو الله البارئ المصور ذو الأسماء الحسنى ، ولا يضيرنا أن يسميه الصائبة ما شاء لهم هواهم أن يسموه : السبب الأول ، أو القوة الخالقة ، أو الطبيعية ، أو غير ذلك •

ويدلنا منطق الاستقراء على : أن الموجودات كلها متصلة منسقة ، وانه يستحيل على موجود أن يستقل بذاته ، فوجوده مرهون بوجود غيره

وما اجتمعت جواهر ذرة ولا كتلة جسم ولا كهرب أو نوية لخلية
بغيرها إلا وانتظمت هذه التجمعات قوانين فطرية أزلية • عرف الانسان
بعضها عن طريق رسل الخالق إلى خلقه وعن طريق الفطرة والبدية •
وعرف بعضا آخر عن طريق البحث العلمى على مر العصور وما زال
أمامه الكثير مما لا يعرف •

ومن هنا استقرت فى الشريعة الاسلامية قواعد بديهية :

(أ) فالكون كله مخلوق •

(ب) والكائنات كلها متصلة متسقة ، فيها انطلاق واستمرار ، ومردّها
الى أصل واحد •

(ج) وانطلاق الكائنات مستمر فى اتجاه واحد لا يعرف التضاد
ولا الاختراب ، ما تركت قوانين الفطرة تعمل عملها ، سواء
أكانت هذه الكائنات عضوية أم غير عضوية ، بشرية أم
فيزيائية ، ومنطق البديهية يثبت على خلاف ما استقر فى أذهان
الناس منذ القدم : ان « فلسفة الأضداد » تصور خاطيء :
فليست الأشياء بين حق وباطل ، أو بارد وساخن ، فى شكل
مطلق ، ولكن هذه الأوصاف نسبية • تلحق بمحل الشئ فى
ركب نوعه المتسق فى اتجاه واحد • فحرارة جسم - مثلا - هى
معامل الحركة الذرية Function of molecular movement
من دون الصفر الى أعلى ما نعرف أو ندرك من درجات
الحرارة ، أما البرودة والسخونة فهما أمران ينتسبان الى
جسم الإنسان وذلك بالبداهة : أمر عارض •

والحمضى والقلوى ليسا ضدين ، ولكنهما معاملان لتركيز حبة
الهيدروجين Concentration Function of Hydrogen والأسود والأبيض
ليسوا ضدين ولكنهما انعكاس للضوء الذى هو قطاع للموجات الكهربائية
المغناطيسية Segment of electro-magnetic wave التى تتأثر بها العين
اذ المقرر أن الأجسام كلها ، حتى الأسود منها تشع موجات شبه ضوئية ،

وإن اختلفت ذبذبتها •

والذكاء والغباء ليسا قطبين متعارضين ، ولكنهما نقطتان متباعدتان
في منحني الإدراك البشرى ومدار القوى الفكرية •

والحب والبغضاء ليسا قطبين متعارضين ، ولكنهما نقطتان
متباعدتان في منحني الشعور البشرى الممتد من دون الحياد السلبي الى
الاتفعال الحسى •

وهكذا نجد أن الأجسام حين ينظر إليها بمنظار الفيزياء انما هي
نظام متسق دائب السميت يصف حركة الذرة •

وحين ينظر إليها بمنظار الكيمياء ، فهي نظام متسق دائب السميت
يصف مركبات هذه الأجسام • كذلك نجد أن الإنسان في تركيبه وتصرفاته
حين ينظر اليه بمنظار المعيار الحياتى الفطرى فهو نظام متسق دائب السعى
تحو الاستكمال البشرى ، يوصف بما هو عليه في ركب المجتمع الانسانى :
بدئا من مدى عزوفه عن القوانين الأزلية وانهاءً بما يصل اليه
انصياعا لها •

٢ - النسبية الوجودية :

وإجمال القول : إن الشريعة الإسلامية تقوم على حقيقة أزلية لم
يلتفت إليها الناس إلا القليل منهم في العصر الحديث ألا وهي (وحدة
هذا الكون ووحدة خالقه) •

فالكائنات كلها من خلق واحد أحد هو الله سبحانه وتعالى ، وهي
كلها تسبح بحمده وتسبيحها اتباع لازب دائب لقوانينه الأزلية ، إذ كل
ما فى الوجود يخضع لقوانين تتناول تركيبه الذاتى وعلاقته بغيره من
الموجودات ، يستوى فى ذلك ما على الأرض ، وأفلاك السماوات
وما فيهن ، والإنسان حيثما كان •

ووجود أى جوهر مرهون بوجود الكائنات الأخرى ، ولا يوجد
« مطلق المنفرد » خلا الله تبارك وتعالى فهو وحده المطلق المنفرد فى وجوده

وإطلاقه ، ولا يتصور وجود كائن - عداه - الا منتسبا الى غيره ، تلك
هى « النسبية الوجودية » •

و « النسبية الوجودية » لكل جوهر كائن تفرض التسبيح فى شكل
علاقات ثابتة مطردة تنتظم الكائنات جميعا وتوجد بينها نسقا بالغ
الدقة باهر النظام ، وكل ما يحدث فى الكائنات إنما هو نتيجة تفاعل
هذه العلاقات المطردة أو القوانين الأزلية ، وهو أمر « بقدر » وليس
مجرد صدفة بحتة ، ولا وليد عمل الطبيعة ، اذ ليست الطبيعة الا مجموع
ما فى الكون من كائنات تخضع للنسبية الوجودية التى فطر الله الكائنات
عليها •

واذ كانت الكائنات من خلق واحد أحد •

واذ كانت نسبتها الوجودية راجعة الى قوانينه وقدره •

لذلك فلا معدى من التسليم بوجود وحدة تضم هذا الوجود
بأكمله ، ما كان ذا طاقة كامنة فيه أو ذا حياة تسرى فى أجزائه أو روح
تتقصد بدنه •

ومقتضى الوحدة الكونية أن يكون الانسجام والاتساق والتضام
من صفات القوانين التى تحكم النسبية الوجودية ، اذ لو انعدمت هذه
الصفات لتنافرت جواهر الكائنات وانشعبت وانفطرت وحدتها •

وهذه الصفات الكونية مدلولها الاتساق بين ذوات الطاقات ،

والنماء بين ذوات الحياة والخير والحب والسلم بين ذوات الأرواح •

فحين يهطل المطر مدرارا على قمم الجبال فيفتت الصخر منها ،
وحين ينحدر هذا الصخر يحمله الغيث جارفا ما يعترضه ، ثم حين يحضر
هذا السيل لنفسه مجرى فى الأرض على سفوح الجبال والوديان ، ثم
حين يسرى الماء هادئا فى مجراه على السبيطة ويتخلل تراب الأرض
ويتفاعل مع ذراتها فإذا بالحياة تدب على شطآنها • حين يحدث هذا

كله إنما يحدث بقدر • وهو توحد بين ذوات الطاقات ، ونماء لذوات الحياة وخير وحب وسلام بين ذوات الأرواح • وليس ثورة في الطبيعة كما يصورها الماديون ، ومن والاهم من ذوى القلوب المريضة ، بل هو تسبيح لصاحب القدرة ، واتساق مع قانون الله الأزلى •

٣ - الانسان والكون :

والانسان فى هذا الكون على أعلى ذروة فيه ، فهو وحده الذى أعطى « الأمانة » : العقل المميز والارادة المتصرفة ، وهب الطاقة فى تركيبه المادى ، والحياة منذ كان نقطة ، والروح ساعة أن نفخ الله فيه من روحه • من أجل هذا كرمه الله سبحانه على كثير من خلقه وفضله ، واختصه بما لم يختص به سواه •

وعماد تكريم ابن آدم حرته فى عبوديته : الانسان عبد الله ، كائن مخلوق يخضع فى الكثير لما تخضع له باقى الكائنات ، يتأثر بها كما يؤثر فيها بحكم النسبية الوجودية ، ويتميز عنها بالعقل ، حرا فى تصوره • (ولا جدوى لتصور لا يخرج فى شكل رأى) ومن هنا أصبحت حرية الرأى فى شرعة الاسلام ركنا أساسيا لا غنى عنه •

أما شطر الأمانة الثانى فهو الارادة ، وهى رديفة الرأى والتصور ، اذ الانسان لا يمكن أن يريد شيئا لا يتصوره •

وكلا الشطرين مرتبط بالعبودية ارتباط لزوم وليس ارتباط ارادة حرة مردها الى اختياره : اذ سواء آمن الإنسان بخالقه أو جحده ، فهو كائن مخلوق يخضع للقوانين الأزلية ، فأما إيمانه وأمانته وكرامته فتهديه الى الاتساق مع هذه القوانين والاستفادة من النسبية الوجودية ، وأما كفرانه وجحوده وكنوده فتلك نقائص فيه تخضعه لقانون يعاقب الخارج عن النسق بما يلحق به الضرر والتلف والبوار •

الانسان فى عبوديته يخضع للنسبية الوجودية فيستحيل عليه أن يعيش منفردا بذاته بل لابد له من مجتمع انسانى وبيئة طبيعية ، وهو فى مجتمعه وبيئته يخضع للقوانين التى تحكم الموجودات ، وهى كما سبق ذكره

قوانين تحقق الانسجام والاتساق ، والنماء والبقاء ، والخير والحب والسلام ، وهذه القوانين ذاتها تحكم سلوك الفرد وتصرفاته ، اذ هي التي تحدد الغرائز فيه ، وما الغريزة إلا ذلك التركيب « الشعورى الفيزيائى » الذى يحدد انعكاسات الكائن الحى ويقرر دوافع نشاطه الحسى والعاطفى .

والغاية من خلق الانسان أن يعبد خالقه ، والمقصود بالعبادة هنا تحقيق قوانين الخالق الأزلية والائتلاف مع مجموع هذا الكون الذى يكون الانسان جزءا منه ، وبقدر ما يطبق الانسان من القوانين الأزلية بقدر ما يتقرب من خالقه ويستعلى بنفسه ويستكمل من شخصيته ، وهذه هي الغاية القصوى من حياة الانسان فى الشرعة الاسلامية . وما الحياة المادية الا مطية السمو الروحى .

والغرائز فى الانسان على نوعين ، وان صعب الفصل الكلى بينهما : غرائز تنصب على المادة فمنها المتعلقة بحفظ النوع (الغريزة الجنسية) وبحفظ الحياة (غريزة الطعام) ويتفرع منها الأمن الحسى (غريزة الدفاع عن النفس) ، وبإدراك الذات (غريزة التمايز ويتفرع منها غريزة الملكية) .

وبجانب هذه الغرائز توجد غرائز تتعلق بالمعنويات وهى التى يختص الانسان بها نتيجة ما حمل من أمانة وما تميز به من تكريم ، وأهمها غريزة الانتماء ، وهى الصورة الانسانية لقانون النسبية الوجودية ، وهى غريزة عميقة بالغة الأثر ، فكما يجب أن تظل جواهر الذرة متجمعة مسبحة فى دائب حركتها الذرية ، كذلك يجب أن يظل الفرد (جوهر المجتمع) مجتمعا مسبحا فى فلك مجتمعه وما الانسان العليل الا ذلك الذى يفشل فى أن يندمج مع مجتمعه ، ومن الخطأ افتراض التجارب بين الناس على أساس غريزى وانما يوجد التباغض والتظالم والتحارب لعدم الانصياع للقانون الأزلى ، ولعله من المفيد أن نبين أن سبب هذا الخطأ فى المذهبية المادية راجع الى اعتبار الانسان كائنا خلا من الغرائز المعنوية فهو يعيش بحافز من غرائزه المادية فحسب

وهذا عندنا هو سر البلاء الذى تعانيه الشعوب الغربية ومن اتبع مذهبيتها
من الشعوب الشرقية •

وهناك غريزة التسامى والبناء وهى التى تحفظ على الانسان
كرامته ومكاته فى هذا الوجود ، وتعكس القوى التصورية والإرادية
فيه ، وهى التى تجعله يرنو الى « تخليد » نفسه ، ويجب أن يمتد فرعه
من بعده ، وأن يطيب ذكره بعد انقضاء أجله •

وإشباع هذه الغريزة الفطرية يؤدى بالانسان فى شرعة الاسلام
الى باب الايمان ، اذ تهديه الفطرة الى أمرين متداخلين :

الأول : انه يخضع لسنة الهلاك ، أى انه لن يخلد على هذه الأرض
فهو راحل عنها لا محالة يوم يحين أجله ، اذ لا يوجد على الأرض من
المحسوسات ما لا يهلك ، وان اتخذ الهلاك شكل الاستحالة من جوهر
الى جوهر آخر •

والثانى : ان الموت لا يعنى أكثر من هلاك الجسد المحسوس الذى
يستحيل الى غازات وفلزات أولية ، أما روحه التى هى من أمر الله
فسترد الى خالقها ، وستمتد حياتها الى ما شاء أمره وأنها فى حالها
الجديد تخضع للقانون الأزلى الذى يتمثل فى الفعل ورد الفعل أو فى
الثواب والعقاب • وما بعد الموت فى الحالىين الا استمرار لما قبله •

وهكذا تطرد حياة الانسان فى حركتها على منحنى الزمن اللانهائى
من يوم خلقها الى يوم بعثها فى الأزل المحتوم •

وهناك غريزة الحب وهى التى تنصب على ذاتية الفرد ، فتعرفه
بذاته وترشده الى سلك سبيل الانتماء والاتحاد مع غيره •

وأخيرا هناك غريزة الذات وهى التى تجعل الفرد يشعر بأنه هو
« هو » أو بعبارة مستحدثة يحس بمعنى « أنا » أى انه كائن له ارادة
ووعى وتصور ، فهو ليس مجرد مخلوق ينساق دون شعور لحكم
القانون الأزلى ، ولكنه كائن فيه نوع من الاستقلال عن الطبيعة ينعكس

في قدرته على تسخيرها والاستفادة منها والانسجام معها والعيش في ظلها .

وهكذا نجد الاسلاميه تقرر :

- ١ — أن الكون كله مخلوق وخالقه واحد أحد .
 - ٢ — أن الانسان يعيش ليعبد الله باتباع ودوام استكشاف قوانينه الأزلية .
 - ٣ — أن الانسان يعمل : تحفزه غرائزه مادية ومعنوية في آن واحد .
 - ٤ — أن الانسان ينشد السعادة ويتوصل اليها بالدأب على العبادة واشباع الغرائز بشقيها .
 - ٥ — أن الانسان يتمتع بحمل الأمانة وهو حر في عمله .
 - ٦ — أن الانسان حي في دنياه وأخراه وهو مسئول عن عمله .
- ٤ — الانسان خليفة في الأرض :

ان الحرية التي اختص بها الانسان جعلته الكائن الوحيد الذي يستطيع أن يسخر ما حوله من الكائنات لمنفعته ومتاعه ، فهو بذلك في مركز الولى على هذه الأرض وما احتوته ، المشرف على ما فيها من طاقات وخيرات ، لا منازع له ممن عداه .

وسواء أكفر الانسان بالله أم آمن به ، فلا معدى له من الاقرار بأنه مخلوق ، وبالرغم من أنه أعلى الكائنات درجة على هذه الأرض ، الا أنه — لحق اليقين — غير قادر على الخلق ، وبالتالي فليس الإنسان هو رب الكون وليس مالكة الأصيل ، وانما الأرض والسموات وما فيهن من خلق « السبب الأول » أو القوة الواحدة الخالقة ، أو ما يعبر عنه المسلمون من اتباع الرسل : هن من خلق « الله » تبارك وتعالى .

الانسان مخلوق ، وخالقه من قبل غيره « سبحانه » وليس من ذاته والانسان موهوب بصفات تسويده على سائر المخلوقات ، والهبة من غيره ، وليست من صنع يده ، بل هي من صنع خالقه (جل جلاله) .

ومن هنا وجدت العلاقة بين الإنسان وسائر الكائنات وهي علاقة سببية ثابتة الأطراف مطردة الحكم ، فيها لزوم والالتزام •

فيها لزوم : اذ الخالق هو المسبب لهذه العلاقة ، وتلك إرادته التي لا يد للإنسان فيها ، فهي أمر منه وهي لازمة أو فطرة مفقضية • وفيها التزام : لأن الكائنات كلها - فيما عدا الإنسان - تخضع

« تلقائيا » لقوانين تضبط حركتها وطبيعتها وتفاعلاتها ونماءها ، وهذا الخضوع التزام لا يقبل النقض ولا يعتوره من ذاته افتئات •

والإنسان مخلوق وهب الأمانة : الوعي والارادة أو الخيار • ولكن وعيه واختياره ليسا مطلقين ، اذ هو بحكم خلقه خاضع أيضا لقوانين أزلية تحدد نطاق ما وهب من أمانة فليس تسلطه على غيره تسلطا غير محدود ، وليس الحد نابعا من مجرد الادراك والخيار بل أن ذلك مرده الى طبيعة العلاقة السببية ذاتها ، فهو ملتزم بما تفرضه هذه العلاقة من قوانين وأسباب منظمة وان كانت متعددة وهو حر في اختيار الأفضل له منها في كل علاقاته مع غيره •

واذ وهب الإنسان خصوصية الوعي والارادة ، واذا كرم بأن جعل له الروح مصدرا اضافيا للمعرفة والادراك فقد اختص بالخلافة على هذه الأرض بحكم القانون الأزلي ، أو بحكم الواقع الذي تقرره العلاقة السببية الثابتة ، ومضمون خلافته في الأرض هو نفس علة وجوده ، والحكمة من خلقه ، هو استعمار الأرض واصلاحه فيها ، ولن يتم ذلك على الوجه الأمثل اللهم إلا بقبوله القوانين الأزلية وأتباع سنتها • وذلك لب العبادة ، وحقيقة معنى التسبيح •

خلافة الإنسان في الأرض تعنى قوامة ابن آدم على ما عسده ، والقوامة تتضمن أمرين :

الحماية والاصلاح :

الحماية :

المحافظة على الذات غريزة أساسية في كل انسان ، بل في كل كائن

حي ، والهرق بين الانسان وما دونه من الكائنات أن الانسان يتحكم بعقله في غريزته بينما تنصاع باقى الكائنات تلقائيا لقوانين البقاء دون ارادة أو وعى .

واذ يستحيل على الانسان - كجنس - أن يعيش مستقلا بجنسه عما عداه ، اذ هو محتاج الى ما فى الكون بداهة حتى يعيش ، وذلك مضمون النسبية الوجودية ، اقتضاه ذلك أن يحافظ على (بيئته) التى هى مساك حياته وأن يحميها ما استطاع الى ذلك سبيلا وهذه البديهة المقررة توصلنا الى كنه العلاقة بين الانسان وغيره من الكائنات (الطبيعية أو البيئية) فهى على كل حال علاقة اتساق وليست علاقة تنافر ، وهى فى جوهرها نابعة عن ضرورة الحياة واستمرارها وعمرانها ، فهى علاقة تكتسى فى ظاهرها وباطنها معنى السلم ، وهى تتنافى مع كل فلسفة أو فكرة تصمها بالاحتراب أو التعارض .

الاصلاح

أما الاصلاح المتضمن فى القوامة فينصب على علاقة الفرد بما عداه ، سواء أكان من البشر أم من سائر الكائنات ومقتضى الاصلاح تحقيق النماء وازالة العوائق التى قد تعترض تنفيذ القوانين الأزلية ، بحيث يستمر كل كائن فى مسيرته نحو الغاية من وجوده دون حدوث فجوة فى خط سيره ، ودون أن يعترضه ما يغير سمته ، أو يرجعه القهقرى .

وتفرض سنة الخلق عن طريق النسبية الوجودية قانونا يربط بين الاصلاح وفاعله ، فما من مصلح الا وترك الاصلاح فى نفسه أثرا ايجابيا يسمو به على تقائصه ويغريه بالقيام باصلاح جديد ، اذ الاصلاح استكمال ، والاستكمال فطرة غريزية ، وما من بشر الا وكره لنفسه النقص والنقيصة ، فاصلاح الغير موجب أصلا لاصلاح الذات ، وتلك آية من آيات وحدة الكائنات ، والخلافة بهذا المعنى تتضمن عنصرين متلازمين :

الاول : معنى : :

وهو السعى الدائب للاستكمال البشرى الذى فطر عليه الناس وذلك طريق السعادة ، وهو أيضا سبيل اشباع الغرائز المعنوية كلها ، اشباعا يرسى فى النفس البشرية المعانى التى تحقق ما يجب للخلافة من مقتضيات قيمية : كالعدالة والمساواة والمحبة والأمانة والقوة والقسط فى القول والعمل وما إليها .

الثانى : مبادئ :

وهو ما تستوجبه الخلافة من حقوق وواجبات على الفرد ، اذ مدلول اللفظ يهذى الى تحديد نشاط الأفراد المنصب على ما استخلفوا عليه من طيبات وما يقومون به من أعمال فى نطاق القوانين التى يفرضها عليهم الاستخلاف ذاته .

وهكذا نجد - مثلا - الملكية بجميع صورها : خاصة وجماعية وعامة ، مقيدة بقيود الحماية والاصلاح .

والحكم والحاكم والمحكوم وما يسن من تشريعات وقوانين جزئية ، كل أولئك مقيد بما يفرضه الاستخلاف من شروط .

والفرد فى أسرته وبين أقرانه وعشيرته وبنى وطنه وجلدته انما هو مستخلف يتصرف فى نطاق هذا القانون الأزلى الشامل .

وعلاقات الجماعات البشرية فيما بينها تبنى على أساس أن كل جماعة مستخلفة فى محيطها وليست بحكم وصفها أو تاريخها بأفضل من غيرها بحيث تدعى لنفسها الحكمة والوصاية أو الولاية على من عداها .

وهكذا نجد أن مبدأ الاستخلاف - وان كان ركنا أساسيا فى شرعة الاسلام وفلسفته - انما يستمد وجوده أصلا من مبدأ وحدة الخالق الذى بيده ملكوت كل شيء : فهو وحده مطلق المنفرد والمالك الواهب والمقدر المقنن ، وليس الانسان - فى شمول جنسه - الا خليفة فطر بحكم خلقه على القوامة والاصلاح ، وهو يقوم بذلك نتيجة لما

حمل من أمانة عن وعى وإدراك وشعور كمين عميق تجعله يحس بصلته بالكون وخالقه وبأبناء جنسه ، كما يستشعر معانى الاستكمال كلما أمعن فى العبادة واستقر فى قلبه الايمان ، ومرة أخرى : ليست العبادة فى جوهرها الا اتباع القوانين الأزلية المطردة .

٥ - المجتمع البشرى

يخاطب الاسلام الناس جميعا فمن اهتدى الى الحق واتبع شرعته فقد اهتدى لنفسه ومن ضل فانما يضل عليها ، وهو خارج على القوانين الأزلية ظالم لنفسه .

لقد ظل الانسان منذ خلقه يدأب على كشف الحقيقة الثابتة وهى دالة القانون الأزلى تدفعه الى ذلك فطرته الغريزية وما جبل عليه من رغبة لا تفر الى الاستكمال البشرى يقينا منه ان ذاك هو طريق السعادة . والسعادة لفظ مبهم فى مدلوله ، ولكنه يتعلق فى أصله بأشباع الغرائز المادية والمعنوية أشباعا مطرد الحركة متوازن القوى ، ويتوصل الانسان الى هذه الحال حين يتوحد الفرد فى أعماق ذاته داخل نطاق قانون الوحدة الخالقة ووحدة الكائنات ووحدة المجتمع الذى يعيش فيه .

أما المقصود بتوحد الفرد فى هذا المجال فهو : ألا تتشعب شخصيته وتتعارض تصرفاته اذ يحدث ذلك حين لا يستطيع الفرد أن يوائم بين وعيه وإرادته . بحيث لا ينقض أى قانون أزلى ، ويرجع ذلك عادة : إما إلى عجز الفرد عن هذه الموازنة ، وإما عن جهله بالقوانين التى تحكم تصرفاته ، وإما عن تغاضيه عنها أو نكرانه لها .

ولعل خير مثال نضربه لتوضيح هذا الانشعاب هو الانسان الذى يعيش فى ظل الحضارة المادية السائدة ، إذ يتجاهل الفرد فيها الغرائز المعنوية ويحاول - دون جدوى - أن يصل الى التوازن الذى يجلب عليه الأمن والسعادة ، انه يضل لأنه يستبدل قانونا من صنع يديه بالقانون الفطرى ، ويراعى فى قانونه اهدار القيم المعنوية واخضاعها لمتطلبات الغرائز المادية ووجه الضلال فى ذلك أن من يفعل ذلك يغالط نفسه :

اذ في أعماق ضمير الفرد شعور فطري بالقيم العليا مهما تثنى على احتقارها ، فلن يستطيع أن يجحد أثرها ، بل سيظل ضميره يلح عليه كي يرجع إليها ، كما سيجد من تجربته الظالمة أنها تؤدي به الى ما فيه الاضرار به ، سواء أحدث هذا الاضرار في صورة مادية أم معنوية ، وحينئذ يحس الفرد بالانشعاب والأزدواج : يقول ما لا يفعل ، ويقترب ما ينهى عنه ، ويحارب هدى عقله ، ويحبس صوت ضميره ، وقد يدعو به الى اضرار جديد ، ويظل سامدا محمولا في حلقة المفرغة ، إلا أن يقدر له الهدى والرشاد .

٦ - نشأة المجتمع :

جرت سنة الأزل على أن يجتمع في جنس الكائنات الموجب والسالب أو الذكر والأنثى ، وباجتماع الصنفين يتكاثر الأحياء .

فالمجتمع البشرى ليس الا نتيجة طبيعية لسنة التكاثر الناتجة عن اجتماع الذكر والأنثى ، يضاف الى ذلك عامل خاص بنى آدم هو احتياجه منذ القدم الى التجمع نظرا لعوامل غريزية وبيئية ، والواقع ان المتمن فيما ركب في الانسان من غرائر يجد أنها لا تشبع الا بالتجمع ، فالمادى منها يحتاج الى نوع من التكتل والتعاون والتبادل لا تتاج ما يحتاجه الانسان ، وما أكثر ما يحتاج . ولتأمين حياته ضد ما قد يصيبه من ضرر أو ما قد يعصف بأمنه وسلامته .

وكذلك الحال في الغرائر المعنوية ، من انتماء الى حب ، الى تسام الى غير ذلك ، اذ يقتضى اشباع هذه الرغبات الفطرية أن يعيش المرء في مجتمع انساني ينتسب اليه ، ويتبادل فيه مع أقرانه عاطفة الولاء والمحبة ، بل أن الفرد لا يستطيع أن يعرف نفسه ما لم تنعكس صورتها على غيره من الناس ، وليس للاستكمال البشرى معنى ما لم يسند هذا الاستكمال الى مقياس مدارج السمو في المجتمع المحدد الذى يعيش فيه الفرد .

كما أن البيئة التي يعيش فيها الفرد تدعوه الى تكوين مجتمعه ،
سواء أعاش الانسان في بيئة بدائية كما هي الحال في حياة الصيد والرعى
أم في بيئة أكثر تقدما كما هي الحال في حياة الزراعة والتجارة أم في بيئة
متحضرة كما هي الحال في حياة الصناعة الكبيرة المكثفة .

فالمجتمع البشرى ضرورة تقتضيها ضرورة أبعد عمقا هي اشباع
الغرائز الانسانية ، والتجمع أيضا انسياق مع قانون الوحدة الكونى ،
لذلك كان الأصل فيه أنه خير وان كان ما قد يشوبه من عوارض توهن
من ترابطه أو تعمل على تشتته فهو شر ، اذ مما لا شك فيه أن معيار
الخير والشر في أمر ما هو مقدار تمشييه مع القوانين الأزلية أو
مفارقة لها .

وتذهب شرعة الاسلام الى أن الأصل في التجمع البشرى هو فعل
الخير وتحقيق الرفاهة وحسن القيام بالعبادة كما سبق تعريفها ، وليس
صحيحا البتة : أن يفترض بغير دليل مقبول ان الانسان ما اجتمع بغيره من
بنى جنسه الا ليستغلهم ويستعبدهم ما استطاع الى ذلك سبيلا ، وان
القوى فيهم آكل الضعيف لا محالة ، وان الصراع محتوم بين الأقوياء
من جهة وبين الضعفاء والمستضعفين وان مساك المجتمع هو الحاجة
المادية التي تأسر الفقير وتضع عليه الأغلال .

ليس هذا كله صحيحا ، وليس صحيحا ما يستدل به عليه من أن حقبا
في التاريخ البشرى مرت وكان هذا الاستبداد والاستعباد الصفة الغالبة
في العلاقة بين أفراد المجتمع الواحد اذ مع التسليم بقيام تلك الصور
الظالمة في تاريخ المجتمع البشرى - ماضيه وحاضره - فليس معنى ذلك
أن تلك هي سنة الكون أو قوانين الفطرة ، اذ لو كان الأمر كذلك لما ثار
الناس على هذه المظالم ولاستقرت تلك العلائق دون تغيير ، ولما كانت
محل نظر ومدعاة الى الثورة عليها .

وفي شرعة الاسلام ان الانسان يولد على الفطرة السوية وأن المولود
لا يتصف بالخير أو الشر ، ولئن كان من المقرر أن للوراثة أثرا على

المولود الا أنه من الحق أيضا أن نقرر أنه لو أحسن تربية هذا المولود
لأمكن التغلب على آثار الوراثة التي تخالف قانون الفطرة ، كما أنه
حق أيضا أن يقرر : أن انحراف الآباء عن جادة الهدى خطأ للمجتمع حظ
فيه قل أم كثر وليس ذلك بيرهان على فساد الأساس الذي يبنى عليه
أى مجتمع بشرى ، بل هو دليل على قيام قانون الوحدة فيه ، اذ وجود
مرض يصيب أى عضو من أعضائه لا يقتصر على ذات العضو ولكنه يمتد
منه إلى سواه ، وهو ما يعبر عنه بالتكافل بين أفراد المجتمع الواحد •

٧ - مساك المجتمع :

لن يتكون مجتمع سليم ما لم يتوافر فيه عنصران أساسيان :

الأول : وحدة العقيدة وسلامتها : اذ لو اختلفت العقيدة لاختلّت
أنظار الأفراد الى قضاياهم في حياتهم المعاشية ولأختلفت بالتالى أحكامهم
عليها ، ويضاف الى هذا أن الجماعة البشرية السليمة لا تدب فيها الحياة
الا أن توحد هدفها لدى العام والخاص من أفرادها ، فالعقيدة هنا
بمثابة المذهبية التى ترمى الى تحقيق مثل أعلى يعتر به الفرد ويكرم به
المجتمع ويسعى الجميع الى تحقيقه •

ومن هنا تتضح أهمية « سلامة العقيدة » فكم من مذهب فاسدة أضلت
أقواما اتبعوها وزادوا عنها بالأنفس والأموال ، وكم قاست البشرية من
جراء العقائد الفاسدة التى اعتنقها الناس على مر التاريخ حتى يومنا هذا ،
وان المتبع لكتابات فلاسفة القرن العشرين في العالم المادى ليجد التحذير
الشديد من مغبة اعتناق العقيدة المادية ، وكثير منهم أولئك الذين يتبنون
بأنه ما لم يطرأ تغيير جوهري على هذه المذهب فانهما ستجر معتنقيها الى
هلاك لا نجاه منه •

وكلما رسخت العقيدة في أذهان الناس واستقرت في قلوبهم
وأصبحت رمزا لأعمالهم وآمالهم كلما قويت الوشائج بين الأفراد وتزايد
التعاطف بينهم وتوحد بالتالى مجتمعهم •

وكلما صحت العقيدة وقربت من قوانين الفطرة كلما أفاءت على معتنقيها الخير والقوة والنماء - وبهذا لا تكون مشكلة الحكم على سلامة العقيدة في المجتمع من التعقيد بحيث يعز حلها كما يتوهم ذلك كثير من الفلاسفة العرب ومفكريهم ، وإن كانت دون ريب من الأهمية في بناء المجتمع بمكان .

فإن أخذنا بهذا المعيار للمذاهب والشرائع فسنجد أن شرعة الاسلام أصحها جميعا . فهي بحكم منطوقها المتطابقة تماما مع نوااميس الكون ، المشتملة على قوانين الفطرة جميعا ، ما انصب منها على المادة أو ما تعلق بالروح .

والثاني : وحدة النظم :

ويعنى النظام system في هذا المجال مجموعة القواعد المستقرة في مجتمع ما ، والتي تنظم وتحدد علاقات الأفراد بعضهم ببعض ثم علاقاتهم بالمجتمع ككل ، ثم علاقة مجتمعهم بسائر المجتمعات ، وبعبارة أخرى : يشمل هذا اللفظ ما يعبر عنه بالنظام الاجتماعي والنظام السياسي والنظام الاقتصادي والنظام الجمالي ، وهي الميادين الأربعة التي تضم نشاط أفراد أى مجتمع بشرى .

ان المقصود من وحدة النظم هو وحدة الفكر المنصب على النظر في أى ناحية من هذه النواحي الأربع ، وانما يتأتى ذلك حين يتوحد الايمان بالشرعة أو المذهبية أو المثالية . وحينئذ يكون استخلاص قواعد النظم والأحكام التي تضبط المعاملات من قبلها ليس مجرد تقنين أو تشريع أو فلسفة بل تقرير لواقع يؤمن به الأفراد وترتضيه غالبيتهم وتسير عليه الجماعة ، بوازع من الضمير قبل أن تطبقه خشية من طائلة عقاب القانون .

وغنى عن التفصيل أن نقرر : أنه حين تشتق هذه النظم من معين شرعة واحدة فستغلب عليها وحدة النظر الى الانسان في مجتمعه ووحدة الحكم على تصرفاته ، وستكون القواعد التي تحكم تصرفاته في مختلف

نواحي نشاطه وعلاقاته متجانسة متسقة ، تسعى كلها الى هدف واحد
هو تحقيق ما تنشده شرعته •

وبدون هذه الوحدة في النظم : فلن يكون للشرعة وجود ، ولن تترك
في نفوس الناس الأثر المرجو ، بل ان انفصام النظم عن شرعتها وعدم
توحيدها يؤدي الى الفصل بين الشرعة أو العقيدة ، وبين الحياة البشرية
في نواحي نشاطها المتعددة ، وهذا يؤدي الى انشعاب شخصية الفرد
وازدواجها والى هدر ما للقيم المعنوية من أهمية في معاملات الناس
وقلوبهم •

وحين تقرر شرعة الاسلام قانون « الوحدة في الكون » وقانون
« التناقص » في الكائنات وحين تجعل ابن آدم « مستخلفا » لا يجوز
له أن يستعمل سيادته على الكائنات الا في حدود قواعد استخلافه من
حماية ، الى استصلاح • وحين يجعل من ذلك كله سبيلا الى عبادة الخالق
ومحاولة دائبة للاتصال به ، حين تقرر شرعة الاسلام هذا وما سواه
انما ترسم للفرد والمجتمع الخطوط الرئيسية للعلاقات التي تقتضيها
النسبية الوجودية متسقة مع ما ركب في الفرد من غرائز قد تبدو أو
تكون - بغير هذا التنسيق - متعارضة أو متنافرة •

فالأثرة - مثلا - والإيثار صفتان مشتقتان من غريزتين أصليتين
هما حب الذات والالتقاء مع الحب • والأثرة تدعو الى تفضيل الذات على
الغير والاستئثار بما تهواه النفس وبما تحسبه انه الخير لها والإيثار
على تقيض ذلك ، وكلا الأمرين مطلوب ، بل هو طبيعي بمقتضى متطلبات
كل غريزة فطرية •

وهنا تتدخل أحكام الاستخلاف فتوقف الأثرة عند حدود حماية
المجتمع والبيئة وبشرط الاصلاح الذي يقتضى الاتساق والنماء وسرعان
ما تلتقى حينئذ الأثرة بالإيثار ، وينعم الفرد ومجتمعه بنشاط الفرد الذي
حفزه الأثرة ، ونتيجة عمله الذي در خيرا على المجتمع الذي حققه
إيثاره •

ولعل الملكية خير مثال يضرب لتوضيح أثر الشريعة الإسلامية في توجيه غرائز الانسان وطاقاته الى غاية موحدة دون احتراب أو تضاد ، اذ الملكية الخاصة مباحة في حدود امتلاك ما هو حل للمسلم وبشرط أن يكون التملك عن طريق حلال ، ولل فرد أن يملك ما استطاع وما شاء من الثروات على هذا الوجه المشروع . ومع ذلك فملكيتة في أساسها خاضعة لقانون الاستخلاف فمن واجبه المقابل لملكيتة أن يحافظ على ما تحت يديه من نعم الخالق وآلائه وأن يصلح من شأن ما ملك ، فان قصر في واجبه انتقصه المجتمع من حقه بمقدار ما قصر .

من أجل هذا تقرر شريعة الاسلام ان مالك الأرض الذي لا يزرعها مع الحاجة الى غلتها ، عليه أن يمكن غيره من زراعتها ولا عائد له منها ، فله حق الرقبة (الملكية) وليس له حق الانتفاع الذي حققه غيره .

وتقرر أن للمجتمع أن يحجر على مال السفينة حتى لا يضيع ، بل انها تقرر أن من يحتجز ماله دون استعماله ، فعليه أن يزكيه ومن كان عنده فضل زاد أو دابة ، فليعد به على من ليس عنده طعام ولا دابة .

وتقرر شريعة الاسلام تطبيقا للاستخلاف أن الحاكم مستخلف على رعيته فهو ليس الأمير المطلق الذي يتصرف كيف يشاء فيما يشاء ولكن حدود استخلافه تطبيق القوانين التي سنتها الشريعة والتي أقرها المجتمع بما رأى ضرورة استحداثه ، وهو في منصبه السيامي أول الخاضعين لهذه القوانين وأول المنفذين .

وفي مجال الأسرة نرى الرجل مستخلف على أهله ، عليه أن يعاشرهم بالمعروف . وطاعة الزوج محدودة في نطاق ما أمر الله به ، والزوجة بدورها مستخلفة في بيتها وعلى أهلها : ترعاهم وتنفق من مال الزوج عليهم وذلك في حدود ما كلفتها به الشريعة السمحاء .

وهكذا دواليك ما من تصرف انساني في المجتمع الا وصدر أصلا عن حق للفرد في التصرف ، وواجب يقيد هذا الحق ، وكما تخضع الحقوق كلها لشروط اكتساب شرعيتها ، كذلك يخضع الواجب لشرطي

الاستخلاف : الحماية والاصلاح • سواء أكانت الحقوق والواجبات
مادية أم خلفية معنوية •

٨ - المجتمع المسلم :

المجتمع المسلم هو ذلك الذى يؤمن أفرادہ بشرعة الاسلام •

والايمان هو ما وقر فى القلب وصدقه العمل ، فالقضية ليست مجرد
تصديق بغير ، أو شعائر تؤدي تقربا الى الله زلفى ، ولكنها قضية
واحدة ذات وجهين ، الأول : ايمان قلبى ، أو يقين روحى ، بوحدة الخالق
وما له من صفات حسنى ، وبأن الدين عند الله الاسلام وأنه الحق اليقين
وبالرسل جميعا ، وبخاتمهم محمد بن عبد الله (صلى الله عليه وسلم) •

أما الوجه الثانى : فهو العمل بمقتضى شرعة الاسلام ، اذ لن يصدق
ايمان فرد مالم يكن عمله موافقا لهذه الشرعة الاسلامية التى تقوم على
ما قدمنا من أركان تمس حياة الفرد فى كل زاوية من زواياها •

هذه الوحدة بين حياة المسلم الروحية وحياته المادية ، وهكذا
التواءم بين الروح والعقل ، وهذا المزج غير المنفصل بين الضمير والفعل ،
هذا الشرط الأساسى هو أهم ما يميز شرعة الاسلام عن غيرها بميزة
تضفى عليها الأفضلية من حيث المضمون ، والواقعية من حيث التطبيق •

أما أفضلية المضمون : فذلك أنها تجمع بين القيم المعنوية والنواحي
التعبدية وبين عمل الفرد الحسى فى نطاق واحد ، وذلك حين تقرر أن
العبادة عمل يصدق به الايمان •

وأما واقعية التطبيق : فذلك أن تلك الشرعة تراعى غرائز الانسان
الحسية والمعنوية وتنسق بينها وتسمو بها ، فتأخذ بعين الاعتبار ان
ما من عمل مادى إلا امتزج بشعور معنوى ، باد أو خفى ، فلا تحاول كبته
فينقلب وبالا على صاحبه أو ينحرف به عن الجادة ، ولا تتجاهله بحيث
يتحلل الفرد من القيم المعنوية دون شعور يائمه ما يقترب من الذنب •

الإيمان أصل وغاية •

والعمل تبع ووسيلة •

فالمسلم يؤمن بالله الواحد القهار ، يقضى حياته في محاولة دائبة للاتصال بنوره واكتساب مرضاته ولا يتم ذلك الا عن طريق العمل الصالح واتباع شرعة الاسلام التي تقوم أساسا على قوانين الفطرة ، وهو في هذا المسعى يؤدي واجب العبادة ، ويستشعر في ذلك دواعي الأمن والسلام ، ذلك أن العمل الصالح : هو ما جلب على صاحبه وعلى المجتمع خيرا ورفاهية ، أو ما يدفع عنهما شرا وخسارة • والعمل الصالح يسهم في زيادة « اتاجية » الفرد والمجتمع حتى لو كان نصيحة مقبولة من مسلم لأخيه المسلم •

على أن شرعة الاسلام لا تترك أمر الفرد في الجماعة الاسلامية رهوا لا يحكمه الا رأى الفرد ذاته ، بل إنها تضع تفاصيل كثيرة تحد من تصرفات الأفراد وتصرفات المجتمع وتنظم العلاقات كلها في اطار قوانين كلية وقواعد شرعية يلتزم بها الجميع في نطاق الجوانب الأربعة للحياة البشرية :

• العلاقات الاجتماعية

• والعلاقات السياسية

• والعلاقات الاقتصادية

• والقيم الجمالية (المعنوية والأخلاقية) •

ليس المقصود من هذا البحث تحديد العلاقات والقيم كل على حده ، انما المقصود معرفة الشرعة التي تستقى منها هذه العلاقات والنهج الذي يجب أن يتبعه الباحث حين يحاول الخوض في أى ميدان من هذه الميادين الأربعة •

الواقع أن دراسة أى جانب من جوانب الحياة البشرية منفصلا عما عداه ليس بالأمر المستطاع نظرا لأنه لا يمكن عزل وجهة عن الوجهات الأخرى فالعلاقات الاجتماعية تتأثر بسائر العلاقات والقيم ، كما تؤثر فيها ، ومن المستحيل أن يتصور مثلا علاقة مادية اقتصادية لا ينفل بها

« الشعور » بالقيمة الجمالية ، أو الحالة المعنوية أو الخلقية بطرفى هذه العلاقة • من أجل هذا تطورت دراسة العلوم الانسانية فى السنين الأخيرة بحيث يدرس الإنسان من جوانبه المختلفة فى آن واحد وإن ظلت الدراسات التفصيلية مستقلة فى تخصصها وبعدها عن غيرها من النواحي الانسانية الأخرى •

ذكرنا فيما سبق أن شرعة الاسلام تقرر وحدة الخالق ووحدة الكائنات ووحدة المجتمع البشرى ووحدة الفرد فى ذات الفرد •

وتقرر أن الكائنات جميعا تخضع فى وجودها لقانون النسبية الوجودية الذى يحدد علاقتها بعضها ببعض ، وإنها فى ذاتها تخضع لقوانين أخرى تحدد حركتها ونمائها •

وتقرر أن الانسان سيد المخلوقات بما وهب من أمانة تتضمن الوعى والإرادة ، والوعى يتضمن الإدراك العقلى للمحسوسات ، والشعور المستسر الروحى بالقيم والمعنويات ، كما تتضمن الإرادة مكنة الفرد فى أن يختار لنفسه بين ما هو خير (أى متسق مع قوانين الفطرة) وما هو شر (أى متعارض مع هذه القوانين) •

وتقرر أن الانسان لابد له أن يعيش فى مجتمع ، اذ يستحيل عليه البقاء بمفرده ، وهو فى تجمعه مدفوع بحكم غريزته ، والغريزة صورة من صور القوانين الأزلية ، أو الفطرية •

وتقرر أن الانسان مستخلف على كل ما فى الأرض ، اذ كل ما هو كائن فهو من خلق الله ، وهو وحده المالك ، وإن الاستخلاف يفرض على الإنسان قيودا على حريته فى التصرف ، وهى قيود تؤدى إلى خير • ففيها الحماية والاصلاح ، كما يتضمن حكم كل ما يتعلق بالتصرفات البشرية المادية منها والمعنوية ، فيضع أسس المعاملات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ، والقواعد الجمالية ، أما فى الناحية المعنوية : فالاستخلاف يرسم نطاق الاستكمال البشرى وآماد اشباع الغرائز المعنوية ويوجد الصلة والتوازن بينها وبين الغرائز الحسية •

وما أن يوجد المجتمع المسلم حتى يظهر أثر هذه الكليات في دورة الحياة البشرية ، وحتى تمد الشريعة الإسلامية هذا المجتمع بالكثير الجديد •

أولا : العمل :

العمل هو الوسيلة المباشرة لإشباع غرائز الإنسان ، المادية منها والمعنوية ، والغرائز ضرورة ، وكل ما هو لازم للضرورة فهو ضرورة : سد الجوعة محافظة على البقاء ، ومزاولة الجنس ، حفظا للنوع ، وحرب المعتدين حماية للأمن وإبقاء على الذات ، كل هذا عمل لا محيص عنه وكله لازم لمقابلة الغرائز الفطرية في البشر •

ثم ان الانتماء للجماعة يقتضى أن يبذل الفرد شيئا من وقته وماله وأن يضحي ببعض حريته حتى يشبع هذه الغريزة • وفي البذل عمل ••

ومحبة الأهل والعشيرة تقتضى نوعا من التضحية المحبة والتضحية بذل لعمل •

وحب الذات أو أثره النفس لا تتصور إلا اذا عنت اختصاص الانسان نفسه بنتيجة عمل •

والتسامى وحب التخليد لا يتوصل اليهما إلا بعمل •

فالعمل اذن ضرورة لازمة للحياة ، وليس كما يتوهم البعض أمرا خياريا قد يتأتى للمرء أن يستغنى عنه ، وثابت أن الذين لا يعملون يكونون أقرب الى التلف والمرض والهلاك من العاملين ، وتلك سنة فطرت الكائنات عليها •

من أجل هذا تقرر شرعة الإسلام : ضرورة العمل على من يستطيعه ، وتحدد صفة مشتركة في كل عمل ، وهى التى يقتضيها الاستخلاف ويعنى بها الاصلاح • فالعمل الصالح هو المنشود في المجتمع المسلم وهو

ما تتطلبه شرعة الاسلام ، وهو ما يؤجر ويثاب الانسان عليه • أما العمل الطالح ، أى الذى يضر بالفرد أو بالمجتمع أو بهما سويا فذلك منهى عنه وجزاؤه العقاب •

ثانيا : مساواة : تامة كاملة بين الناس جميعا من حيث هم من خلق الله ، فلا تمييز فى الاسلام بين جنس و جنس ، أو لون وآخر ، وبين قوم وقوم • انهم جميعا على قدم المساواة من حيث انسانيتهم وانما يمتازون بصالح العمل •

وجدير بالذكر أن ثبت ما قرره الاسلام من شموله لكافة الخلق وما جحدته من عصبية أو وطنية أو عشيرية أو جنسية يعتد بها صاحبها على غيره ، فالأوطان كلها أرض الله والانسان مستخلف عليها ، والعشيرة أو القوم « المواطنون » أناس من خلق الله ولدوا وابتسبوا الى أرض الله ، والأجناس كلها من صنعه يمتازون شكلا ولونا لاختلاف البيئات الجوية والجغرافية التى نشأوا وتوالدوا فيها ، والمساواة فى شرعة الاسلام ليست تجريدا وقيمة معنوية دون حدود أو ضوابط ، وانما هى أمر ينعكس على الكفالات التى تقررها الشريعة حين يفرض التكافل بين أفراد المجتمع الانسانى ، وحين تضمن للانسان - من حيث هو انسان يعيش بين المسلمين - مستوى لائقا لحياته المعيشية المادية حتى تحفظ عليه كرامته التى وهبها الخالق له يوم خلقه وحتى يسعى بين الناس وقد تساوت رأسه برأس من هو أكثر جاها أو غنى أو أقوى جسدا •

والناس كلهم سواء أمام الخالق وأمام الشرعة الاسلامية فيما تفرضه من قوانين ، لا تمايز بين حاكم ومحكوم ، ولا بين عالم وجاهل ولا بين مسلم وكتابى الا ما استثنى بنص ، أو ما فى حكمه •

ثم ان ميزان المساواة قائم بالقسط فى كل العلاقات بين الأفراد اجتماعية وسياسية واقتصادية وأخلاقية ، وهنا أيضا تأخذ المساواة شكلا تنفيذيا ايجابيا بالتقرير والتقنين وسلبيا بالنهى والعقاب •

ثالثا : عدل شامل : ينتظم كل أحكام المعاملات ، والعدل قرين المساواة ، اذ هو بدوره لا يقر التمايز • والا انقلب ظلما وحيفا •

والعدل في شرعة الاسلام على نوعين :

(أ) عدل في الحكم اذا نشب نزاع بين طرفين في المجتمع المسلم ، ومحلله القضاء ، وليس في شرعة الاسلام من يعلو على الخصومة مهما سما مركزه ، وذلك غاية آيات المساواة ، فالحاكم والمحكوم على مستوى واحد أمام القاضي •

(ب) عدل في التكليف والتقنين والتنفيذ ، اذ الاسلام يعطى الحاكم حقوقا ويفرض عليه واجبات ، وعلى الحاكم أن يعدل في تكليف الناس بما هو حق له ، ويجب أن تكون أوامره (قوانينه) عادلة بالنسبة للرعية كلها لا يحابي طبقة على حساب طبقة ولا فردا على حساب آخرين ، ثم عليه أن يعدل في تنفيذ ما وكل اليه انفاذه ، فيعامل الناس كلهم معاملة واحدة لا تفضيل ولا تنكيل •

رابعاً : تكافل : بين أفراد المجتمع جميعاً على اختلاف درجاتهم ونزعاتهم ، والمقصود بالتكافل ايجاد رابطة شرعية مقررة تلقى على عاتق كل فرد مسئولية معينة قبل غيره في نطاق عنصرى المساواة والعدل ومتطلبات المجتمع • وليس في تاريخ البشرية كلها تكافل يعدل ما جاءت به شريعة الاسلام • ويكفى أن تقرر في هذا المقام أن المسلمين يسعى بذمتهم أدناهم ، فإن أجار هذا الأدنى عدوا مقاتلا جازت إجارته وعصم دم العدو حتى يحطه المسلم من عهده •

وأساس التكافل راجع الى وحدة المجتمع أصلاً ، اذ يتكون المجتمع من سلسلة مكونة من حلقات متعددة ، هي أفراد ، فان وهنت حلقة وهنت السلسلة كلها ثم أن قانون الاستخلاف يقضى بأن المال أصلاً لله ، وان على صاحبه المستخلف واجبا نحو مجتمعه ، وهذا الواجب هو احدى صور التكافل الاسلامى •

خامساً : الجزء : يقتضى تطبيق المبادئ الأساسية السابقة أن

ينال المرء جزاء ما قدمت يداه • وتقوم فلسفة الجزء في شرعة الاسلام على الأسس الآتية :

(أ) لا جزاء بلا عمل ، ولا عمل بلا جزاء ، ولكل امرئ ما اكتسب •

واذ كان العمل فطرة في الناس ، وناموسا في الحياة ، فإن العدل يقتضى أن يحصل العامل على نتيجة عمله ، والناس — في هذا — كلهم متساوون .

ولا يَرِدُ على هذه القاعدة من حد ، إلا ما يقرره مبدأ التكافل . وهو — كما ذكرنا — مستند على الاستخلاف ، لذلك فإن من حق العاجز عن الكسب لسبب خارج عن طوقه أن يأخذ من مال الغير ما يحفظ عليه كرامته الانسانية .

كذلك تأبى شرعة الاسلام أن ينال صاحب المال جزاء على مجرد ملكيته لماله ، فذلك مناف للعدل . ومن هنا حرم الربا ، وما في حكمه من صور استغلال عمل الغير لفائدة صاحب المال .

(ب) للعامل الحق الكامل في جزاء عمله باستثناء ما تفرضه الشريعة من الزكاة وما تفرضه الدولة على المال مقابلة الحاجات الجماعية التي تختص الدولة بالقيام عليها .

وشرعة الاسلام تقر المجتهد . وتبارك عمله ، وتجزئ له الحصول على جزاء اجتهاده وان كثر ، فالتفاوت في الثروات أمر راجع الى تفاوت الجهود المبذولة في سبيل الحصول عليها . على أن الفقر والغنى الماديين ليسا المعيار الأصلي لمنزلة الناس في مجتمعهم الإسلامى ولكن المعيار هو العمل الصالح كما بيناه من قبل .

(ج) هناك فوق جزاء الدنيا جزاء الآخرة . فالمسلم الحق يؤمن عن يقين أن الحياة ممتدة الى ما بعد الممات ، وان قانون الجزاء قانون أزلى ، يسرى في هذه الدنيا كما يسرى في الآخرة ، فهو حين يسعى في هذه الأرض إنما يتغى وجه الله ، ويرجو جزاء الآجلة ، رجاءه جزاء العاجلة . وهذا عنصر روحى من أهم ما يتميز به المجتمع الإسلامى ، وهو سر قوته في ماضيه وحاضره ومستقبله .

هذا ما عَنَ لى أن أقدمه كمحاولة أدرك ما فيها من قصور ، وان عجزت عن استكمالها ، فلست أقلل من شأنه . ولكنها محاولة مجتهد يأمل أن يجد فيها القارئ ما قد يصلح أساسا لما هو أفضل وأكمل .
ولله الشكر والمنة .

المصادر الأصلية للمعرفة في الإسلام

العقل والوحي

محمد المبارك

لمعرفة الحقائق في الاسلام مصدران أو أداتان • ولكن يختص كل واحد منهما بنوع من الحقائق • وفيما يلي بيان ذلك بالاستناد الى نصوص الاسلام نفسه :

١ — العقل (استعملت مشتقاته في الإسلام «يعقلون» كما استعمل تفكر ومشتقاتها • ولم يستعمل العقل والفكر «المصدرين») واختصاصه النظر في ملكوت الله : في السموات والأرض أى في الكون وحوادثه ودليل ذلك أوائل وأواخر كثير من الآيات المتعلقة بالكون وحوادثه وحديث تأييد النخل الصحيح مؤيد لذلك • ويعين العقل الحواس من السمع والبصر والتجربة • ودليل ذلك ما في القرآن من آيات الكون من ألفاظ السمع والبصر والرؤية والنظر ومشتقاتها : يسمعون يبصرون أو لم يروا ، انظروا ، أفلا ينظرون ... الخ وأما التجربة فحديث النخل دليل وخاصة في قوله — صلى الله عليه وسلم — « إن كان يصلح فافعلوا » بعد إخفاق التجربة الأولى •

٢ — العقل دليل مرشد للمصدر الثاني وللتحقق من صحته وسلامته والمصدر الثاني هو الوحي الى الأنبياء الذين اختارهم الله •

فالعقل هو الطريق لإثبات نبوة النبي الصادق ، ورد نبوة المنتسب
الكاذب . ودليل ذلك استعمال الأدلة القرآنية في القرآن لإثبات
نبوة الأنبياء جميعا وخاصة خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم .
ولكن العقل ليس له وضع ما يجيب به النبي موضع الشك
والتحقيق في صحته لخروج ذلك عن اختصاصه . ولأن الوحي هو
مصدر مباشر للحقائق من مصدرها وهو الله سبحانه ، فدرجة
اليقين فيه أعلى من اليقين الحاصل عن طريق العقل .

٣ — الوحي إلى الأنبياء : وهو التعليم أو الإخبار الإلهي المباشر لهم
بطريق لا مجال كذلك للعقل ليعرف كنهها ولكنه يستطيع معرفة
قرائنها وآثارها .

وباعتبار أن من شروط النبوة : الصدق وسلامة العقل ، فاخباره
عن الخبر الإلهي لا مجال للشك فيه . والأصل في اختصاص الوحي —
كما اقتضت حكمة الله — الإخبار عن حقائق عالم الغيب مما يريد الله
تبليغه إلى البشر واخبارهم به كالحياة الآخرة وأحوالها وصفات الله
تعالى ، التي لا تدرك بالعقل مباشرة ، وكالإخبار عن بداية الخلق والمصير .
ومن اختصاصه كذلك معرفة القيم المطلقة في الخير والشر سواء
أكان ذلك مما يستطيع ادراكه بالعقل أم لا ، والغالب أن يكون ادراك
العقل له حين يدركه خاصا غير عام . وقد يحتاج إلى عصور طويلة
وتجارب كثيرة .

وهذه عين القضية التي عبر عنها السلف من المتكلمين باسم قضية
(الحسن والقبح) وكونهما عقليين ، أم شرعيين ، أو عقليين والشرع
كاشف ، أو غير ذلك من الأقوال ؟ ويدخل في هذا الباب جميع ما أتى في
الشرع من الأحكام الثابتة القاطعة في الحلال والحرام في باب الأخلاق
والمعاملات (النظم) .

كحرمة لحم الخنزير والخمر والقمار والزنا والربا والحكم بحل
الزواج ووجوب الزكاة والوفاء بالعقود وأمثال ذلك . مما ورد في

الكتاب اطلاقا ، والسنة في أحوال منها ، وهى التى أريد لها التشريع الدائم . لأن السنة قد تكون من قبيل السياسة الشرعية الزمنية . أو كالعقوبة المحددة فى السنة حينما تكون من قبيل التعزير لا الحد . فهذه كلها لا مجال فيها — بعد ايمان المرء بالنبوة — لوضعها فى موضع الشك . وكل ما يستطيع العقل أن يفعله : هو استخراج الحكمة . على أن يكون مجرد اجتهاد ورأى قابل للخطأ والصواب ، وبالتالي للنقض والتغيير .

ويدخل فى اختصاص الوحي تحديد العبادات التى أمر الله عباده بها ، فهى كما يقول علماؤنا ، توفيقية ، وتعبدية ، لا مجال فيها إلا لتنفيذ الأمر بالكيفية التى ورد الشرع بها عن طريق الوحي أو عن طريق من أمره الله بتبليغ الوحي وهو النبى صلى الله عليه وسلم وتزيد على ما تقدم أن كل ما ورد عن طريق الوحي ، ودل النص دلالة قاطعة عليه ، ولا مجال فيها . للتفسير والتأويل — ولو كان من اختصاص العقل — فالوحي أولى به . لأنه الطريق الأوثق ، والأكثر دلالة على اليقين الذى لا خطأ فيه .

ولكن المشكل فى الدلالة القاطعة على المعنى الظاهر . فكثير من الآيات تورد من المعانى ما هو قائم فى نفوس المخاطبين لمجرد الاستدلال أو الاعتبار أو الاستشهاد . لا على ما هو فى حقيقة الأمر لعدم الحاجة اليه (يرجع إلى باب الكتاب فى الموافقات للشاطبى فقد شرح هذه الفكرة شرحا وافيا)

٤ — هناك مواطن يشترك فيها الوحي والعقل معا . فالوحي يضع معالمها الأساسية وخطوطها الكبرى وقواعدها العامة ، ويترك للعقل تفصيلها ، أو يذكر حكما ويترك للعقل القياس عليه . وهذا باب فى غاية الأهمية وجهله أو تجاهله يوقع صاحبه فى خطأ كبير ويبعده كثيرا عن فقه الدين . ومن يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين ومثال ذلك (الشورى) الواردة أساسا للحكم فى القرآن و (العقود) كذلك و (الحق فيما سوى الزكاة) الوارد فى الحديث . ففى جميع هذه المواطن ترك الوحي للعقل تفصيلها بدلالة السنة القولية ، والفعلية ان وجدت .

وهذه قاعدة تقتضى الاستقصاء لجميع أحوالها وضوابطها لئلا يطغى فيها العقل على الوحي وهو طريق اليقين ، وحتى لا ينسب إلى الوحي ما أريد له في السنة أحوال خاصة بعصر النبي صلى الله عليه وسلم باعتباره ولي الأمر أو القاضى •

وفي كل هذه الأحوال السابقة ، الوحي هو الأساس ، والعقل هو أداة التنفيذ والتكيف والتطبيق •

هذا ما بدا لى فى موضوع مصدرى المعرفة الأصليين ، دون المصادر الفرعية المتفرعة عنهما ، وفى العلاقة بينهما كذلك ، وفى تخصص كل منها بنوع من الحقائق ، أو اشتراكهما اشتراكا منسقا كذلك • وفقنا الله تعالى لفقه كتابه وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، ووفقنا لحسن العمل بهما ، وجعل العمل فى ذلك خالصا لوجهه ، وجزى العاملين بفضله ومنه أفضل الجزاء • والحمد لله رب العالمين •

أفعال الرسول في الأمور الدنيوية

د • محمد سليمان الأشقر

نغنى بالأمور الدنيوية ما فعله النبي صلى الله عليه وسلم بقصد
تحصيل نفع في البدن أو المال ، له أو لغيره ، أو دفع ضرر كذلك ، أو
ما دبره في شأن نفسه خاصة أو شئون المسلمين عامة ، لغرض التوصل
إلى جلب نفع أو دفع ضرر •

ويشمل هذا النوع من الأفعال الأضرِب التالية :

الضرب الأول : الأفعال الطبية ، وهي ما يجريه على بدنة خاصة ،
أو أبدان غيره من الناس بقصد دفع مرض حاضر أو متوقع •
فقد تناول النبي صلى الله عليه وسلم ، أو أعطى غيره ، أطعمة
وأشربة متنوعة ، على سبيل حفظ الصحة ، أو لدرء أمراض معينة ،
كألبان الإبل وأبوالها (١) •

وكذلك تعاطى وعاطى أنواعا مختلفة من العلاج ، فقد احتجم

(١) البخارى ١٧٨/١٠ •

واستعط (٢) ، وكانت حجامته في وسط رأسه (٣) . وكانت حجامته من شقيقة كانت به (٤) .

ولما اشتد به وجعه أهريق عليه من سسبع قرب لم تحلل أو كيتهن (٥) . ولما جرح بأحد ، ألصق على جرحه رماد حصير محترق ليرقأ الدم (٦) . وداوى بريقه مع تراب ، وقال « تربة أرضنا ، بريقة بعضنا ، يشفى سقيمنا ، بأذن ربنا » (٧) .

ورفض أدوية معينة كاللدود (٨) .

الضرب الثاني : الأفعال في الزراعة ، بأن يزرع أنواعا معينة من النبات ، أو يزرع بطريقة ما ، أو يسقى المزروعات كذلك ، أو يفعل بالنبات شيئا بقصد تكثير إنتاجه أو تحسينه أو نحو ذلك .

وشبيه بها ما يفعل بالحيوان بقصد تكثير إنتاجه وتحسينه ، كاطعامه أعلافا معينة ، أو المزاوجة بين سلالات منه مختلفة بقصد الحصول على نسل أجود .

الضرب الثالث : الصناعة ، بأن يصنع بمادة شيئا ما ، بقصد تحويلها الى شكل ذي أوصاف مخالفة لشكلها الأول ، لتكون أنفع ، أو يحلل مادة ما الى حالات أبسط ، أو يركب مادة مع مادة بقصد الحصول منهما على مادة جديدة ، هي أنفع من الأصل .

الضرب الرابع : التجارة ، بأن يعمل في البيع والشراء ، في أشياء معينة في ظروف معينة ، بقصد تحصيل مكسب من فروق الأسعار .

الضرب الخامس : أنواع أخرى من المكاسب كرعى الغنم ، أو العمل للغير بأجر .

-
- | | |
|--|--------------------|
| (٢) البخاري ١٤٧/١٠ | (٣) البخاري ١٥٢/١٠ |
| (٤) البخاري ١٥٣/١٠ | (٥) البخاري ١٦٧/١٠ |
| (٦) البخاري ١٧٤/١٠ | (٧) البخاري ٢٠٨/١٠ |
| (٨) حديث اللدود : البخاري ١٦٦/١٠ واللدود ما يسقى من السدواء بالمسعط في الفم (اللسان) . | |

الضرب السادس : التدابير التى اتخذها صلى الله عليه وسلم فى الحرب من استعمال المجانيق والسيوف والرماح والسهام وتربية الخيل للقتال وحفر الخنادق وترتيب الجيوش وتدريبها .

الضرب السابع : التدابير التى اتخذها صلى الله عليه وسلم فى الادارة المدنية، من اتخاذ الولاة والكتاب والحراس والحجاب والسفراء ، وكذلك الاعلام والشعارات ، والمرافق من الطرق والحصون وغيرها (٩) . فهذه الأضراب وأمثالها قد وقع من النبى صلى الله عليه وسلم الكثير من أفرادها ، ونقل الينا أشياء من ذلك . والنظر فى الأحكام التى يمكن أن تدل عليها مثل تلك الأفعال من وجهين :

الوجه الأول : أصل الطب والزراعة ، والصناعة والتجارة ، والقصد الى تحصيل المكاسب ، والسعى لتحقيق التدابير المدنية والعسكرية المناسبة ونحو ذلك ، يستفاد من فعله صلى الله عليه وسلم فى ذلك اباحته ، وأنه لا يخالف العقيدة ولا الشريعة . وقد يترقى الى درجة الاستحباب أو الوجوب بحسب الأحوال الداعية اليه .

وفى الحديث القولى اشارة الى ذلك حيث قال صلى الله عليه وسلم (١٠) « ما أكل أحد طعاما قط خيرا من أن يأكل من عمل يده ، وإن نبى الله داود كان يأكل من عمل يده » .

ومن قال فى الأمور الجبلية التى فعلها صلى الله عليه وسلم أنه يستحب لنا التأسى بها ، فكذلك يقول هنا ، ومن ادعى الوجوب فكذلك . الا أن القول بأن الأصل فيها الاباحة أصوب كما تقدم فى أفعال الجبلية الاختيارية .

الوجه الثانى : الأمر الذى عمله بخصوصه ، هو مباح له وقد يكون مستحبا له أو واجبا عليه لاعتقاده صلى الله عليه وسلم أنه هو المؤدى الى غرض مستحب أو واجب .

(٩) انظر الكتاب القيم فى تفاصيل ذلك : التراتيب الادارية لمؤلفه عبد الحى الكتانى . نشرته بيروت ، دار احياء التراث العربى ، صورة بالافست .

(١٠) رواه البخارى ٣٠٣/٤ .

ولكن هل يكون حكم مثله بالنسبة إلينا كذلك ، كما لو شرب دواء معيناً لعلاج مرض معين ، فهل يستحب لنا شرب ذلك الدواء لذلك المرض ، أو يجب ، بل هل يباح بناء على ذلك أم لا ؟

هذا ينبئ على أصل ، وهو أن اعتقاداته أو ظنونه صلى الله عليه وسلم في الأمور الدنيوية هل يلزم أن تكون مطابقة للواقع ، بمقتضى نبوته ، أو أن هذا أمر لا صلة له بالنبوة ؟ اختلف العلماء في ذلك على مذهبين :

المذهب الأول : إنه صلى الله عليه وسلم معصوم من خطأ الاعتقاد في أمور الدنيا ، بل كان كل ما يعتقده في ذلك فهو مطابق للواقع .
ولم نجد أحداً من قدماء الأصوليين ، صرح بمثل هذا المذهب .

ولكنه لازم لمن جعل جميع أفعاله صلى الله عليه وسلم حجة حتى في الطبقات والزراعة ونحوها . وهو لازم أيضاً لمن صحح منهم أن تقريره صلى الله عليه وسلم لمخبر عن أمر دنيوى يدل على صحة ذلك الخبر ، كما فعل السبكي وأيده المحلى والبناني (١١) .

والذين عند حصرهم أقسام الأفعال النبوية ، لم يذكروا الفعل النبوى في الأمور الدنيوية ، كقسم من أفعاله لا دلالة فيه ، يظهر أنهم يقولون بهذا القول ، إذ يلزمهم أن يكون فعله صلى الله عليه وسلم في الطب مثلاً دليلاً شرعياً . من هؤلاء مثلاً أبو شامة ، والسبكي ، وابن الهمام ، وغيرهم .

وابن القيم في كتابه (الطب النبوى) (١٢) يذهب إلى حجية أفعاله صلى الله عليه وسلم في الطب ، فيلزمه القول بهذا المذهب .

ويظهر أن هذه طريقة المحدثين ، فانا نجد عند البخارى مثلاً هذه الأبواب ، ولم يذكر فيها من الأحاديث إلا أحاديث فعلية (باب السعوط)

(١١) أنظر جمع الجوامع وشرجه وحاشيته ١٢٧/٢ ، ١٢٨ ، وأيضاً ٩٥/٢
(١٢) هو بعض كتابه المشهور (زاد المعاد فى هدى خير العباد) وقد طبع أيضاً مفرداً .

(باب أى ساعة يحتجم) (باب الحجامة فى السفر) (باب الحجامة على الرأس) (باب الحجامة من الشقيقة والصداع) (١٣) وعند غيره من المحدثين ، كأصحاب السنن تبويبات متشابهة • ويوافقهم الشراح غالبا على ذلك ، فيذكرون استحباب أدوية معينة ، لأمراض معينة ، بناء على ما ورد فى ذلك من الأفعال النبوية •

المذهب الثانى : أنه لا يجب أن يكون اعتقاده فى أمور الدنيا مطابقا للواقع ، بل قد يقع الخطأ فى ذلك الاعتقاد قليلا أو كثيرا • بل قد يصيب غيره حيث يخطئ هو صلى الله عليه وسلم •

قالوا : وليس فى ذلك حط من منصبه العظيم الذى أكرمه الله به ، لأن منصب النبوة منصب على العلم بالأمور الدينية ، من الاعتقاد فى الله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، والأمور الشرعية • أما اذا اعتقد أن فلانا مظلوم فاذا هو ظالم ، أو أن دواء معين يشفى من مرض معين فاذا هو لا يشفى منه ، أو أن تديرا زراعيًا أو تجاريًا أو صناعيًا يؤدى الى هدف معين ، فاذا هو لا يؤدى اليه ، أو يؤدى الى عكسه ، أو أن تديرا عسكريًا أو اداريًا سينتج مصلحة معينة ، أو يدفع ضررا معينًا ، فاذا هو لا يفعل ، فان ذلك الاعتقاد لا دخل له بالنبوة ، بل هو يعتقده من حيث هو انسان ، له تجاربه الشخصية ، وتأثيراته بما سبق من الحوادث ، وما سمع أو رأى من غيره مما أدى الى نتائج معينة ، فكل ذلك يؤدى الى أن يعتقد كما يعتقد غيره من البشر ، ثم قد ينكشف الغطاء فاذا الأمر على خلاف ما ظن أو اعتقد •

وقد صرح بأصل هذا المذهب دون تفاصيله القاضى عياض (١٤) والقاضى عبد الجبار الهمداني المعتزلى (١٥) والشيخ محمد أبو زهرة (١٦)

(١٣) صحيح البخارى ١٠/١٤٥ - ١٥٢ • •

(١٤) الشفاء ٢/١٧٨ •

(١٥) المغنى ١٧/٢٥٦ حيث جعل من شرط الاقتداء بالفعل « أن يكون مما له مدخل فى الشرع ولا يكون جعل مما يفعل للمنافع والمضار » •

(١٦) كتابه : تاريخ المذاهب الفقهية ص ١٠ •

وظاهر الحديث أنه صلى الله عليه وسلم كغيره من الناس في ذلك ، بل فيه التصريح بأن أصحاب الخبرة في صنائعهم وتجاراتهم وزراعاتهم قد يكونون أعلم منه بدقائقها . إلا أن القاضي عياض جعل الخطأ في ذلك نادرا ، لا كثيرا يؤذن بالبله والغفلة (١٧) .
ويحتج لهذا المذهب بأدلة منها :

أولا : حديث تأييد النخل ، ففي صحيح مسلم عن رافع بن خديج أنه قال « قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة فاذا هم يأبرون النخل فقال : « ما تصنعون ؟ » قالوا : كنا نصنعه . قال : « لعلكم لو لم تفعلوا كان خيرا » فتركوه ، فنفضت ، فذكروا ذلك له . فقال : « إنما أنا بشر ، إذا أمرتكم بشيء من دينكم فخذوا به ، وإذا أمرتكم بشيء من رأيي فإنما أنا بشر »

وفي رواية طلحة ، قال صلى الله عليه وسلم : « ما أظن ذلك يغني شيئا » فأخبروا بذلك فتركوه . فأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك فقال : « ان كان ينفعهم ذلك فليصنعوه ، فاني إنما ظننت ظنا فلا تؤاخذوني بالظن ، ولكن اذا حدثتكم عن الله شيئا فخذوا به فاني لن أكذب على الله » وفي رواية أنس : « أتم أعلم بدنياكم » (١٨) .

وشبيه به حديث ابن عباس في قصة الخرص (١٩) « وفيه : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما أنا بشر فما حدثتكم عن الله فهو حق ، وما قلت فيه من قبل نفسي فإنما أنا بشر » .

وقد رد الاستدلال بهذا الحديث ، بأن المراد : أتم أعلم بدنياكم من أمر دينكم (٢٠) ويكون توييها لهم .

(١٧) الشفاء ١٨٠/٢ .

(١٨) راجع لروايات هذا الحديث : صحيح مسلم ١٨٣٥/٤ ومسند أحمد ١٥٢/٣ .

(١٩) ذكره القاضي عياض : الشفاء ١٧٨/٢ ولم يعزه .

(٢٠) البناني : حاشيته شرح جمع الجوامع ١٢٨/٢ وأيضا : على القاري : شرح الشفاء .

وسياق الأحاديث على اختلاف رواياته يأبى هذا التأويل ويبطله .

ثانيا : حديث أم سلمة رضى الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم قال (٢١) : « انما أنا بشر ، وأنكم تختصمون الى ، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضى له على نحو ما أسمع . فمن قضيت له بحق أخيه شيئا فلا يأخذه ، فانما أقطع له قطعة من النار » .

وفي رواية الزهرى للحديث المذكور (٢٢) : « انما أنا بشر ، وانه يأتينى الخصم فلعل بعضكم أن يكون أبلغ من بعض ، فاحسب أنه صادق ، فأقضى له بذلك » .

إذا ثبت الأصل الذى ذكرناه آنفا ، فانه ينبى عليه أن ما فعله صلى الله عليه وسلم فى أمور الدنيا مما مرجعه الى تجاربه الخاصة ، وخبرته الشخصية ، وتفكيره وتقديره فى الأمور الدنيوية التى ليس لها علاقة بالدين ، لا يدل على مشروعية ذلك الفعل بالنسبة الى الأمة .

وممن صرح بهذه القاعدة بصفتها العامة من الأصوليين القدامى القاضى عبد الجبار (٢٣) .

وصرح به حديثا ولى الله الدهلوى (٢٤) ومحمد أبو زهرة (٢٥) ، وعبد الوهاب خلاف (٢٦) ، وعبد الجليل عيسى (٢٧) ، وفتحى عثمان (٢٨) .

(٢١) البخارى ١٥٧/١٣ وأصله عند مسلم وأبى داود .

(٢٢) البخارى ١٧٢/١٣ .

(٢٣) المغنى ٢٦٩/١٧ .

(٢٤) حجة الله البالغة ٢٧٢/١ .

(٢٥) كتاب : تاريخ المذاهب الفقهية . ص ١٠ .

(٢٦) كتابه : أصول الفقه ص ٤٣ .

(٢٧) اجتهاد الرسول .

(٢٨) الفكر القانونى الاسلامى بين اصول الشريعة وتراث الفقه ، القاهرة ، مكتبة وهبة (د . ت) ص ٦٨ .

أما من حيث التفصيل فقد وضعه ابن خلدون في المقدمة ، في شأن ما ورد عنه صلى الله عليه وسلم في شأن الطب ، حيث قال :

« الطب المنقول في الشرعيات من هذا القبيل — يعنى طب البادية المبنى على تجارب قاصرة — وليس من الوجى في شيء ، وإنما هو أمر كان عاديا للعرب ، ووقع في ذكر أحوال النبي صلى الله عليه وسلم ، من نوع ذكر أحواله التي هي عادة وجيلة ، لا من جهة أن ذلك مشروع على ذلك النحو من العمل ، فانه صلى الله عليه وسلم لما بعث ليعلمنا الشرائع ، ولم يبعث لتعريف الطب ولا غيره من العاديات ، ووقع له في شأن تلقيح النخل ما وقع ، فقال : أنتم أعلم بأمور دنياكم • قال : فلا ينبغي أن يحمل شيء من الطب الذي وقع في الأحاديث المنقولة على أنه مشروع • فليس هناك ما يدل عليه • اللهم الا اذا استعمل على جهة التبرك وصدق العقد الايماني فيكون له أثر عظيم النفع ، وليس ذلك في الطب المزاجي » أ هـ (٢٩) •

رأينا في ذلك :

نختار المذهب القائل بأن أفعاله الدنيوية ليست تشريعا ، وذلك لاجل الأدلة الآتية :

١ — قوله تعالى (قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي) وقوله (قل سبحان ربي هل كنت الا بشرا رسولا) وقد تكرر التأكيد في الكتاب على بشرية الرسول صلى الله عليه وسلم وإنه ليس إلها ولا ملكا ولا يعلم الغيب • ومن المعلوم أنه صلى الله عليه وسلم لما نبأه الله عز وجل ، لم يمنع من تصرفاته البشرية كما يتصرف غيره من الناس على غالب الظنون والتقادير التي تخطيء وتصيب ، ولا تعهد له بأن يمنعه من الخطأ في ذلك ، فالأصل استمرار حاله في ذلك كما كان قبل النبوة ، لما لم يدل على انتقاله عن ذلك دليل •

وقد أكدت السنة النبوية ما بينه القرآن من ذلك ، كما يأتي :

(٢٩) المقدمة ص ٤٩٣ •

٢ — قوله صلى الله عليه وسلم : « إنما أنا بشر فاذا أمرتكم بأمر دينكم فاقبلوه • وإذا أمرتكم بشيء من دنياكم فانما أنا بشر » • وفى رواية : أتم أعلم بدنياكم • وقد تقدم هذا الحديث •

وبهذا الحديث ، برواياته المختلفة ، يؤصل النبى صلى الله عليه وسلم أصلا عظيما فى الشريعة ويبينه لنا ، ويشعرنا بأن بعض أفراد الأمة قد يكونون أحيانا أعلم منه صلى الله عليه وسلم بما يتقنونه من أمور الدنيا ، والمقصود أهل الخبرة فى كل فن وصناعة ، وأنه لا داعى شرعا لالتفاتهم الى ما يصدر عنه صلى الله عليه وسلم من ذلك الا كما يلتفتون الى قول غيره من الناس •

٣ — ما ذكر ابن اسحاق فى سيرته (٣٠) ، فى سياق غزوة بدر ، قال : حدثت عن رجال من بنى سلمة ، أنهم ذكروا أن الجباب ابن المنذر ، قال : يا رسول الله : أرأيت هذا المنزل ، أمنزلا أنزلكه الله ، ليس لنا أن نتقدمه ، ولا تتأخر عنه ، أم هو الرأى والحرب والمكيدة ؟ قال : بل هو الرأى والحرب والمكيدة • فقال : يا رسول الله • فان هذا ليس بمنزل • فانهض حتى تأتى أدنى ماء من القوم ، فننزله • ثم نغور ما وراءه من القلب • ثم نبني عليه حوضا فنملؤه ماء ، ثم نقاتل القوم ، فنشرب ولا يشربون • فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لقد أشرت بالرأى •

٤ — ما ورد فى الحديث أن نفرا دخلوا على زيد بن ثابت ، فقالوا له : حدثنا أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : كنت جاره ، فكان اذا نزل عليه الوحى بعث الى فكتبته له ، فكان

(٣٠) سيرة ابن هشام ، وعليها الروض الانف للسهميلي ، بتحقيق

عبد الرحمن الوكيل • القاهرة دار الكتب الحديثة (د • ت) ٩٧/٥ •

إذا ذكرنا الدنيا ذكرها معنا ، وإذا ذكرنا الآخرة ذكرها معنا ،
وإذا ذكرنا الطعام ذكره معنا ، فكل هذا أحدثكم عن رسول الله
صلى الله عليه وسلم (٣١) .

هـ — ما ورد عن هشام بن عروة ، أن عروة بن الزبير كان يقول
لعائشة (٣٢) « يا أماء ، لا أعجب من فهمك ، أقول : زوجة
رسول الله صلى الله عليه وسلم وبنت أبي بكر . ولا أعجب من
علمك بالشعر وأيام الناس : أقول : ابنة أبي بكر ، وكان أعلم
الناس أو من أعلم الناس . ولكن أعجب من علمك بالطب ،
كيف هو ومن أين هو ؟ » قال : فضربت على منكبه ، وقالت :
« أى عريئة ! إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يسقم
عند آخر عمره ، أو في آخر عمره . فكانت تقدم عليه وفود
العرب من كل وجه ، فينعتون له الأنعام ، وكنت أعالجها له » .

مسائل متممة لبحث الأفعال النبوية الدنيوية :

المسألة الأولى :

إذا انضم إلى الفعل الدنيوي قول آمر ، فذلك يخرج الأمر من
باب الأفعال ويعود النظر إلى الدليل القولي ، وذلك خارج عن موضوع
بحثنا .

وليت بعض الباحثين يتولى بحث الأقوال النبوية المتعلقة بالأمر
الدنيوية ليصل في شأنها إلى قول فصل ، ثم يجمعها من كتب الحديث
وينص على ما يصح استفادته منها من الأحكام وما لا يصح .

المسألة الثانية :

إذا نص القرآن على أمر دنيوي فهو حق لا مرية فيه ، لأنه من
الله تعالى الذي لا تخفى عليه خافية في السموات ولا في الأرض .

(٣١) ذكره الدهلوي في حجة لله البالغة ٢٧٢/١ ولم يعزه .

(٣٢) رواه أحمد في مسنده (٦٧/٦) .

فإن كان الفعل النبوي في الشئوث الدنيوية استجابة لأرشادات القرآن التي تتعلق بذلك الأمر ، فيكون الفعل بياناً أو امتثالاً للقرآن ، ويحصل على الشرعي . ولعل خير مثال على ذلك شربه صلى الله عليه وسلم العسل للتداوي (٣٣) ، فإن ذلك تطبيق لقوله تعالى (يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس) .

وشبيه بذلك ما أخبر صلى الله عليه وسلم أنه فعله عن وحي من الله تعالى .

المسألة الثالثة :

إذا تردد الفعل بين أن يكون دنيوياً أو دينياً حمل على الديني ، لأنه الأكثر من أفعاله صلى الله عليه وسلم ، والله أعلم .

(٣٣) الخطيب البغدادي عن أنس : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا اشتكى اقتمح كفا من شونيز وشرب طيه ماء وعسلا (الفتح الكبير)

ثمن العدد في الوطن العربي :

لبنان ٤٠٠ ق.ل.	اليمن ٣٠ ريال	قطر ٧ ريال
سوريا ٣٥٠ ق.س.	السعودية ٦ ريال	ليبيا ٢٠٠ مليم
العراق ٣٥٠ فلس	مصر ٢٥٠ مليما	تونس ٥٠٠ مليم
الأردن ٣٠٠ فلس	السودان ٣٥ قرشا	الجزائر ١٠ دينار
الكويت ٥٠٠ فلس	البحرين ٤٠٠ فلس	المغرب ٥ درهم

الامارات العربية ٧ دراهم



كافة الاشتراكات يتفق عليها راسا مع :

دار البحوث العلمية للنشر والتوزيع

ص.ب ٢٨٥٧ كويت

هاتف ٤٣١٩٨٢ - برقا : دار بحوث

القرآن الكريم والحضارة

د. عون الشريف قاسم (*)

كان القرآن الكريم وما يزال معجزة حضارية نزلت في أمة أمية لم يبعث الله فيها رسولا قبل محمد صلى الله عليه وسلم ، النبي الأمي ، الذي كان كقومه أميا لا يعرف ما الكتاب بدليل قوله تعالى في سورة الشورى (٥٢) (وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الايمان ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا وانك لتهدى الى صراط مستقيم) . وكان هذا النور الذي فتح الله به على رسوله الكريم هو السبيل الى فتح آفاق الحكمة والمعرفة والحضارة أمام هذه الأمة الأمية فانتقلت بفضل معجزة القرآن من التخلف الى التحضر لقوله تعالى في سورة الجمعة (٢) (هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفي ضلال مبين) صدق الله العظيم . ومعجزة القرآن الكبرى في هذا المقام أنه رغم نزوله في أمة أمية بدوية لم يكن تعبيرا عن مرحلة البداوة ، بل كان في جملته وتفصيله ، تعبيرا عميقا عن مرحلة متقدمة من مراحل الحضارة والتمدن . ويكفي أن

(*) وزير الشؤون الدينية والأوقاف بالسودان .

نذكر في هذا المقام : أنه خاطب النبي الأُمى الذى لا يقرأ ولا يكتب أول ما خاطبه بكلمة : (اقرأ) • فمعجزة طلب القراءة من النبي الذى لا يقرأ تقابلها بمعجزة وضع الرسالة المعبرة عن أرقى صور الحضارة فى الأمة الأُمّية الضاربة فى البداوة ، وكلا المعجزتين دالتان على قوله تعالى : (الله أعلم حيث يجعل رسالته) •

وحقيقة الأمر : أن رسالة الإسلام المودعة فى القرآن الكريم لم تكن تعبيراً عن حال العرب أو وضع جزيرتهم فحسب ، بل كانت تعبيراً عن وضع الانسانية جمعاء وهى تنتقل من مرحلة البداوة وبساطة الحياة القائمة على رابطة الدم فى حياة القبيلة الى مرحلة الحضارة وتعقد النظام الاجتماعى القائم على رابطة المصلحة المشتركة فى حياة المدينة • وقد كان هذا الانتقال من حياة البساطة والبداوة الى حياة التعقيد الاجتماعى سبب قيام كل الحضارات والمدنيات القديمة التى كانت تزدهر لفترة ثم تنهار لتحل محلها حضارة جديدة ، وقد كانت رسالات السّماء كما يصورها القرآن الكريم موجهة فى جملتها الى هذه المجتمعات المتقدمة التى يبلغ التناقض فيها أشده بين القيم وواقع الحياة المعاش • والمتتبع لقصص الأنبياء والرسل الذين وردت سيرهم فى القرآن الكريم يجدها دائماً مقرونة بحياة المدن التى يعبر عنها القرآن الكريم بكلمة القرى • والقرية فى اللغة العربية : المصر الجامع ، وتطلق على المدن ، وفى الحديث الشريف : (أمرت بقريّة تأكل القرى) وهى مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم • وأم القرى مكة • وفى القرآن الكريم فى سورة الزخرف (٣١) (وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم) أى مكة والطائف ، وكاتبا مدينتين • وهذه الفكرة التى تربط الرسالات بالمدن معروضة فى القرآن الكريم فى مواضع كثيرة كقوله تعالى فى سورة يوسف (١٠٩) : (وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي اليهم من أهل القرى أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم) • وكقوله تعالى فى سورة الاعراف (٩٤) : (وما أرسلنا فى قرية من نبي الا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء) • وكقوله تعالى فى سورة الزخرف (٢٣) : (وكذلك ما أرسلنا من قبلك فى قرية من نذير الا قال

مترفوها انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مقتدون) • ويذكر القرآن الكريم في مواضع مختلفة ان القصص التي يقصها على النبي الكريم هي قصص القرى كقوله تعالى في سورة الأعراف (١٠١) : (تلك القرى نقص عليك من أنبائها) ، وكقوله تعالى في سورة هود (١٠٠) : (ذلك من أنباء القرى نقصه عليك منها قائم وحصيد) وكثير من هذه القرى أو المدن استحق العذاب لظلمه كما جاء في قوله تعالى في سورة القصص (٥٨) : (وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها) • وفي قوله تعالى في سورة الحج (٤٥) : (وكأين من قرية أهلكناها وهي ظالمة) • وقد اقترنت حياة القرى بالفساد والظلم بحيث قل أن تنجو قرية من العذاب ، وذلك مذكور في قوله تعالى في سورة الاسراء (٥٨) : (وان من قرية الا نحن مهلكوها قبل يوم القيامة أو معذبوها عذابا شديدا كان ذلك في الكتاب مسطورا) • وقد ذكر القرآن الكريم أسماء بعض المدن المرتبطة ببعض الرسل والأنبياء • فحياة سيدنا موسى عليه السلام في مصر كانت حياة مدينة ، وقد ذكر ذلك في سورة يونس (٨٧) (وأوحينا الى موسى وأخيه أن تبوءا لقومكما بمصر بيوتا واجعلوا بيوتكم قبلة) • وفي سورة القصص تتحدث الآية الخامسة عشرة عن سيدنا موسى : (ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها ••) ويذكر في الآية (١٨) : (فأصبح في المدينة خائفا يترقب ••) وفي الآية عشرين : وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى قال يا موسى ان الملا يأترون بك ليقتلوك فاخرج إني لك من الناصحين) •

وقد أرسل الله شعبيا الى مدينة مدين ، وأرسل صالحا الى ثمود الذين وصفهم القرآن الكريم بأنهم : (الذين جابوا الصخر بالواد) ، فاستحقوا لعصيانهم الاهلاك بالطاغية ، وأرسل هودا الى عاد ، وقد وصف الله تعالى مدينتهم (إرم) بقوله جل وعلا في سورة الفجر : (إرم ذات العماد • التي لم يخلق مثلها في البلاد) ، فأهلكهم الله بريح صرصر عاتية • وعاش سيدنا يوسف عليه السلام في قصور فرعون بعد السجن وأرسل الي أبويه في البادية ليعيشوا معه في المدينة كما ورد في سورة يوسف

(١٠٠) : (ورفع أبويه على العرش وخروا له سجدا وقال يا أبت هذا تأويل رؤيائى من قبل قد جعلها ربي حقا وقد أحسن بى إذ أخرجنى من السجن وجاء بكم من البدو من بعد أن نزغ الشيطان بينى وبين اخوتى ان ربي لطيف لما يشاء انه هو العليم الحكيم) • وذكر القرآن الكريم أصحاب الحجر في قوله تعالى : (ولقد كذب أصحاب الحجر المرسلين) ، ووصفهم في آية أخرى بقوله تعالى : (وكانوا ينحتون من الجبال بيوتا آمنين) • وفى قصة لوط عليه السلام أوضح القرآن الكريم انه كان يعيش في مدينة ، فذكر في الآية (٦٧) من سورة الحجر بشأنه : (وجاء أهل المدينة يستبشرون) ، وذكر في سورة الأعراف (٨٤) بشأنه أيضا : (وما كان جواب قومه الا أن قالوا اخرجوهم من قرينكم انهم أناس يتطهرون) • وقصة سيدنا ابراهيم عليه السلام في منطقة ما بين الرافدين وفي مصر ، وبناءؤه الكعبة التى قامت حولها مدينة مكة مشهورة ، وحتى قصة أهل الكهف متصلة بالمدينة ، فقد ذكر القرآن الكريم على لسانهم بعد أن استيقظوا من سباتهم : (فابعثوا أحدكم بورقكم هذه الى المدينة) الكهف (١٩) • وتحدث القرآن الكريم عن سيدنا يونس في سورة الكهف (٩٨) فقال : (فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين) • صدق الله العظيم •

وقد أكثر القرآن الكريم من ذكر مظاهر التطور السيسى والاقتصادى في هذه المجتمعات الحضريّة ، فتحدث عن الملأ ، وهى الطبقة الحاكمة المحيطة بالملك أو صاحب السلطان ، كفرعون وملأه فى قصة موسى مكرما وورد في سورة يونس (١٨) (وقال موسى ربنا انك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا) • وتحدث عن ملأ بنى اسرائيل ، وملأ قوم لوط ، وملأ هود فى عاد ، وملأ صالح فى ثمود ، وملأ قوم شعيب بحدين ، وملأ سليمان ، وملأ بلقيس ، وتحدث عن المترفين والملوك وعصيانهم فذكر في سورة النمل (٣٤) على لسان بلقيس : (قالت ان الملوك اذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك

يفعلون) • وقال في سورة الاسراء (١٦) : (واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها) • وقال في سورة سبأ (٣٤) : (وما أرسلنا في قرية من نذير الا قال مترفوها انا بما أرسلتم به كافرون) • وقال في سورة الزخرف (٢٣) : (وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير الا قال مترفوها انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مقتدون) • ولم يكن محمد صلى الله عليه وسلم بدعا في الرسل من هذه الناحية ، فقد بعثه الله في مدينة هي مكة أم القرى ، وخاطبه تعالى بقوله في سورة الشورى (٧) : (وكذلك أوحينا اليك قرآنا عربيا لتنذر أم القرى ومن حولها) • وقال تعالى في سورة الانعام (٩٢) : (وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذي بين يديه ولتنذر أم القرى ومن حولها) • وجعل الله هجرته الى مدينة يثرب ، وقد سميت بالمدينة في الاسلام ، وكانت من قبل تدعى يثرب ، وقد ذكر القرآن الكريم اسم المدينة أربع مرات ، ولم يرد اسم يثرب الا مرة واحدة في سورة الأحزاب في قوله تعالى (١٣) (واذا قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا) • -

وفي حديث القرآن الكريم عن العرب تركيز واضح على الحياة الحضرية وحياة المدينة ، وقل ان نجد ذكرا للبداوة وحياة الرعى • بل ان القرآن الكريم حين يذكر البادية يذكرها كنقيض لحياة التحضر والمدينة ، وقد وردت كلمة البدو مرة واحدة في القرآن كله ، وذلك في سورة يوسف حين شكر يوسف ربه فقال : (اذ أخرجني من السجن وجاء بكم من البدو) • وذكر القرآن الكريم لفظة الباد في سورة الحج (٢٥) : كمقابل للعاكفين في مكة فقال تعالى : (والمسجد الحرام الذي جعلناه للناس سواء العاكف فيه والباد) • وتحدث في هذا المقام عن الأعراب ، وهم البدو ، ووصفهم بالغلظة ، فقال جلّت قدرته في سورة التوبة (٩٧) : (الأعراب أشد كفرا ونفاقا وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله) • وقال (١٠١) : (وممن حولكم من الأعراب منافقون) وقال في سورة الحجرات (١٤) : (قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الايمان في قلوبكم) • وقد بين القرآن الكريم في مواضع كثيرة أن الأعراب غير العرب ، وهم

البدو في أطراف المدن ، ولذلك تحدث عن (أهل المدينة ومن حولهم من الأعراب) في سورة التوبة ، وتحدث عن المنافقين في المدينة ، وقال عنهم في سورة الأحزاب (٢٠) : (وان يأت الأحزاب يودوا لو أنهم بادون في الأعراب) . وقد كانت لفظة الأعراب تعتبر ذما ، وهى مقابلة لكلمة العربى التى يستعملها أهل المدن في معظم البلاد العربية لمن حولهم من البداءة حتى في الوقت الحاضر ، كما هو الحال عندنا في السودان . فقد قال ابن منظور في لسان العرب (ولا يجوز أن يقال للمهاجرين والأنصار أعراب ، انما هم عرب استوطنوا القرى العربية وسكنوا المدن ... فان لحقت طائفة منهم بأهل البدو بعد هجرتهم ، واقتنوا نعما - بفتح النون والعين - ، ورعوا مساقط الغيث بعد ما كانوا حاضرة أو مهاجرة ، قيل قد تعربوا ، أى صاروا أعرابا بعدما كانوا عربا . وفي الحديث الشريف : ثلاث من الكبائر منها التعرب بعد الهجرة ، وهو أن يعود البادية ، ويقيم مع الأعراب بعد أن كان مهاجرا ، وكان من رجع بعد الهجرة الى موضعه (من البادية) - من غير عذر - يعدونه كالمرتد) أه .

وهذا التركيز على حياة المدينة الذى تجلى في كل القرآن يشير الى أن ما كان أمرا طارئا وعابرا في ماضى البشرية من مظاهر الاستقرار والتحضر قد أصبح في حاضرها مركز الثقل في تطور الانسانية . فالحياة المدنية القائمة على الزراعة المتطورة والتجارة والصناعة وما يتصل بها من تنظيم اجتماعى ، وما ترتكز عليه من علم وثقافة ومهارة مما يستوجب سيادة العقل ، كل ذلك قد تأكد على مستوى العالم ، وفتح بذلك مرحلة جديدة في مسيرة التطور البشرى هي مرحلة النمو الاجتماعى الثقافى المتكامل في حياة الحضارة القائمة على الزراعة المتطورة والتجارة والصناعة في المدينة . وفي هذا الطور تنهار علاقة رابطة الدم التى كانت تحكم النظام الاجتماعى المرتكز على اقتصاديات البداوة وتنهار معها سلطة الجماعة وما يتصل بها من أعراف كانت تنظم علاقات المجموعة لتحل محلها رابطة المصلحة المشتركة التى توفق بين المصالح المتناقضة في حياة المدينة ، التى لا يتجمع الناس فيها على أساس

رابطة الدم شأن القبيلة ، وانما يتجمعون كأصحاب مصالح على اختلاف ألوانهم ، وتباين أصولهم ، وتناقض مصالحهم ، والتاجر الذى هو رمز المدينة لا يتعامل مع الناس كأقرباء وانما يتعامل معهم كزبائن . وكانت مكة فى القرن السابع الميلادى رمزا للمدينة الجديدة فى كل زمان ومكان ، الى أن يرث الله الأرض ومن عليها . فقد كانت حياتها الاجتماعية وما يكتنفها من تناقض صورة مصغرة لما يجرى فى أى مدينة فى القرن العشرين وما يليه على اختلاف فى الدرجة لا فى النوع . وهذه النقلة الحضارية الكبرى فى حياة البشر التى وضعت حدا فاصلا بين ماضى الانسانية وحاضرها ، ومهدت السبيل أمام انسان العصر الحديث ، تحتاج الى فلسفة جديدة تضع فى حسابها التعقيد الكبير الذى يحدثه هذا التطور فى حياة مجتمعات هذه الحضارة التى تتراكم فيها الثروات ، ويؤدى التطور الاقتصادى فيها الى زعزعة كيان المجتمع ، مما يحتاج الناس فيه الى أكثر من القانون للحفاظ على سلامة المجتمع ومنعه من الانهيار من جراء النمو غير المتوازن بين جانب الحياة المادى وجانبها الروحى والانسانى . وفى مثل هذا المجتمع تتدهور العلاقات الانسانية والاجتماعية ، ويحتاج الناس الى رادع قوى فعال يحل محل العرف وسلطة الجماعة التى كانت تحفظ على الناس تماسكهم الاجتماعى فى مرحلة البداوة ويساطة الحياة . ولا يمكن لدين يأتى فى هذه المرحلة المتأخرة من تطور الانسان ككائن اجتماعى أن يترك حياة المجتمع فى كل تفاصيلها للاجتهاد الشخصى وفوضى النظريات التى تنطلق فى معظم الأحوال من الدوافع الذاتية وتتحكم فيها الأهواء والنزعات كما هو الحال فى كثير من النظريات الاجتماعية المعاصرة ذات الاتجاه الواحد التى تحكم جانبا من جوانب الانسان وتغفل جوانبه الأخرى ، بل لابد للدين من أن ينظم علاقة الانسان بربه أولا ثم يوجه هذه العلاقة لتطوير العلاقات الانسانية داخل المجتمع ويضع لها الأسس والضوابط عن طريق الأحكام العامة ، ويترك للناس مجال الاجتهاد فى التفاصيل والأشكال التى تتغير بتغير الظروف وتقلب الأحوال .

وكانت الديانات السماوية قبل الاسلام رغم اشتغالها جميعا في صورتها المصفاة على جوهر العقيدة الخالدة ، تعبر عن مرحلة البساطة الأولى من تطور البشر ، وتحمل سماتها على المستوى الاجتماعي . فكانت كل رسالة موجهة لمجموعة بعينها من الناس لتلائم وضعهم الحضارى . وتقلصت رسالات السماء في نهاية المطاف من جراء جحود الناس وعصيانهم لتصبح رمزا للجمود والتعصب والتحريف على أيدي من أنزلت عليهم ، كما هو الحال في رسالة سيدنا موسى التى استجالت عند اليهود الى ديانة قومية عنصرية تحل لليهود ما تحرمه على غيرهم وتحكم معيارين للتعامل ، لليهود فيما بينهم معيار ، ولليهود في علاقاتهم بغيرهم معيار آخر ، وانتهى بهم الأمر الى أن جعلوا الله رب كل الناس الها قوميا خاصا بهم دون جميع الناس . وجاءت المسيحية لتصحيح هذه التحريفات حتى يتسع دين الله محبة للناس ورحمة ، ويخرج من الاطار القومى الضيق الذى حصره فيه اليهود ، وليصبح الله سبحانه وتعالى كما أراد جلت قدرته الها لكل الناس ، لا لليهود وحدهم . ولكن المسيحية لظروف تاريخية معلومة لم تتوسع في تنظيم علاقات المجتمع ، وانما اكتفت بما جاءت به التوراة ، وما وضعه الرومان من تشريع ، تاركة ما لله الله وما لقيصر لقيصر . وبذلك كانت هذه النقطة الحضارية الكبرى التى حددت مسار البشرية ووضعتها في طريق التطور المدنى القائم على الاقتصاد المتطور في حياة المدينة في حاجة الى دين جديد يعبر عن هذا الوضع الجديد . كانت البشرية في حاجة الى تغيير جديد عن تطورها الروحية الجديد الذى يتسم بانهايار سلطة الجماعة وتضامنها في حياة المدنية وطفيلان فردية الفرد على مصلحة المجموعة ، مما يحتاج الامر معه الى صياغة جديدة للفرد والمجتمع تعيد اليهما جميعا التوازن والانسجام بما يحفظ للمجتمع تماسكه وتكافله ويضمن للفرد حريته وتطوره . وكان الجديد الذى أتى به القرآن الكريم تعبيرا عن هذا الوضع الجديد . انه أكمل رسالة سيدنا موسى وسيدنا عيسى عليهما السلام بأن أدخل الدين في حياة المجتمع ومزج بين قيم الدين وشعائره ومجرى الحياة اليومية بحيث أصبح

الدين هو الدنيا وأصبحت الدنيا هي الواجهة الأخرى للدين ، واتخذ من الفرد الانساني وسيلة للتغيير الاجتماعي بحيث أصبح الفرد يحمل في ضميره كل قيم المجتمع وعلاقاته العامة لأنه ألغى الفوارق المصطنعة بين سلوك خاص يفعل الانسان فيه ما يشاء ما دام بعيدا عن المجتمع وبين سلوك عام يتقيد فيه الانسان بنوع معين من التقاليد . ألغى الاسلام الازدواجية التي كانت قائمة في المجتمعات القديمة وما تزال قائمة في المجتمعات المعاصرة والنابعة من فكرة فصل الدين عن الدنيا بحيث يكون هناك معياران للسلوك واحد خاص وآخر عام ، فأصبح الفرد بحكم ما رسبه الدين في نفسه عن طريق الشعائر والمعاملات صورة للمجتمع يحمل في ضميره كل القيم الاجتماعية التي تحض على التكامل والتعاون والاحترام المتبادل وتدفع الانسان الى التفاني في خدمة الآخرين والحفاظ على أرواحهم وأموالهم وأعراضهم لا لأنه يخشى الناس أو يطمع في مرضاتهم ، ولكن لأن له معيارا موضوعيا ثابتا يحكمه في كل صغيرة وكبيرة خاصة وعامة ، هو معيار التقوى وخشية الله ، لأن الله الذي هو فوق كل خلقه يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ومن خشى الله لم يهب أحدا ولم يخش في الحق لومة لائم .

وهذا النموذج المتطور للفرد - المجتمع أو الدولة - الذي سعى به الاسلام لعلاج تطور الحياة الحضرية في مرحلة حياة المدينة وأكمل به الدين على مدى الزمان هو الحل الحاسم لمشكلة الحضارة في كل البيئات والأزمان الى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، ولذلك كان الاسلام خاتم الرسالات ، وكان نظامه الفكري والاجتماعي والروحي الذي يركز على خلق الشخصية الانسانية المتوازنة التي لا افراط فيها ولا تفريط والتي توازن بين حاجات الجسد وحاجات الروح كما أمرها الله سبحانه وتعالى في قوله الكريم في سورة القصص ٧٧ (وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله اليك ولا تبغ الفساد في الأرض ان الله لا يحب المفسدين) ، كان هذا النظام الاسلامي في تكامله انجازا وإتماما لما جاء به الرسل من قبل ، وحين ذكر الله جلّت قدرته في محكم تنزيله كآخر ما نزل من القرآن

الكريم (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام ديناً) فان هذا كان تلخيصاً رائعاً لكل الجهد الروحي والحضارى الذى بذلته الانسانية تحدوها عناية الله وهدايته من لدن آدم عليه السلام لتحقيق خلافة الانسان لله على الأرض ، وقد حوى القرآن الكريم كل هذا الجهد الخلاق بين دفتيه ، وكان على خلاف كل معجزات الرسل : معجزة عقلية حضارية وضعت حداً فاصلاً لعهود الأساطير وغلبة العواطف والأهواء والنزعات الضالة وأكدت سيادة العقل والعلم . ولذلك لا عجب ان كانت أول كلمة منه ثورة على الجهل : اقرأ ، وكانت أول آياته تحديداً للمنطق العلمى الذى يسير عليه فى تنظيم الحياة : (اقرأ باسم ربك الذى خلق * خلق الانسان من علق * اقرأ وربك الأكرم * الذى علم بالقلم * علم الانسان ما لم يعلم) .

ولم يكن هذا التركيز على العلم الذى افتتح به القرآن الكريم الوحى المنزل هو نهاية المطاف لسعى الانسان الذى انتهت اليه الانسانية فى هذا الطور الأخير من تطور البشر بل نحس بتركيز القرآن عليه فى كل ماضى الانسان من لدن آدم عليه السلام الذى كرمه الله على كثير من خلقه بالعلم وكان اختصاصه بالعلم سبباً فى عصيان إبليس وقد ذكر ذلك القرآن الكريم فى قوله تعالى فى سورة البقرة ٣٠ - ٣٤ (واذا قال ربك للملائكة انى جاعل فى الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال انى أعلم ما لا تعلمون . وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال انبثوني بأسماء هؤلاء ان كنتم صادقين . قالوا سبحانك لا أعلم لنا الا ما علمتنا انك أنت العليم الحكيم . قال يا آدم انبثهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم انى أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون . وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين) . والقرآن فى سبيل تركيز ملكة التفكير يوجه عقل الانسان الى مظاهر الكون الخارجية ليتخذ منها مادته فى إدكاء جذوة الفكر وتقوية ملكة التأمل

واكتشاف حقائق الوجود الدالة على حكمة الله فلذلك كثرت الآيات الكونية في القرآن وكلها آيات لقوم يعقلون ، ولقوم يتفكرون ، ولقوم يفقهون ، ولقوم يعلمون ، ويكفى في هذا المقام أن نذكر أن لفظة العلم ومشتقاتها تكررت أكثر من ثمانمائة مرة في القرآن الكريم ، ولفظة العقل ومشتقاتها حوالي خمسين مرة والتفقه عشرين مرة والتفكر ثمانية عشرة مرة . ولذلك لا عجب أن كان العلم الذي شرف الله به الإنسان على كل خلقه هو المعيار الحقيقي لمعرفة الله وإدراك حكمته كما ذكر القرآن في قوله تعالى في سورة فاطر ٢٨ (إنما يخشى الله من عباده العلماء) وكما كان مدخل القرآن دعوة للقراءة والتعلم في أول آياته فإنه قد اتخذ أسلوباً عقلياً ثقافياً في لفت أنظار العرب إلى محتواه الفكري الذي لا يقوى على إدراكه إلا المثقفون والمتضلعون في العلم ، ويبدو هذا في أبلغ صورة فيما يسمى بفواتح السور ، وهي عبارة عن أحرف مبهمّة تبدأ بها سبعة وعشرون من السور المكية وسورتان مدينتان هما البقرة وآل عمران المسميتان بالزهرابين وهي صيغ قد تكون حرفاً واحداً مثل (ص) و (ق) و (ن) ، وقد تكون حرفين مثل (طه) و (طس) و (يس) و (حم) ، وقد تكون ثلاثة أحرف مثل (الر) ، (الم) ، (طسم) ، وقد تكون أربعة أحرف مثل : (المص) ، (المر) ، ووردت مرة واحدة في خمسة أحرف هي : (كهيعص) ، وهي ثلاث عشرة صيغة وردت في افتتاح ٢٩ سورة وعدد الحروف المشتركة فيها أربعة عشر حرفاً أي نصف الحروف الهجائية ، ولا أريد أن أخوض في التفسيرات الكثيرة التي سعى بها العلماء لكشف أسرار هذه الأحرف ، وهي مما استأثر الله بعمله ، ولكنني أشير إلى أنها أدوات علمية ثقافية تحتاج ممن توجه إليه إلى معرفة القراءة والكتابة وكأنه يشير إلى هؤلاء العرب بأن مفتاح هذا القرآن هو العلم والثقافة والتزود بهما فأنت محتاج إلى فك هذه الطلاسم الأولى لإدراك قيمة الحروف ومعرفة القراءة قبل الدخول في القرآن الذي يرمز اسمه نفسه للقراءة ، فإن لفظة القرآن مشتقة على الأرجح من القراءة حملاً على قوله تعالى في سورة القيامة ١٨ (ان علينا جمعه وقرأناه فاذا قرأناه فاتبع قرآنه) ، وكثير من الآيات الأخرى تشير إلى هذا المعنى كقوله تعالى .

في سورة الاسراء ١٠٦ (وقرأنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث) •
ويتصل بمعنى القراءة والكتابة • وقد أكثر القرآن من الحديث عن الكتابة
والكتب بحيث تكررت حوالى ثلاثمائة وعشرين مرة في القرآن ، وقد
أقسم القرآن بحروف الهجاء وأقسم بالقلم وأقسم بما يسطرون وتحدث
عن أدوات الكتابة من مداد وقرطاس وصحف وسجل وضرب بذلك المثل
في قوله تعالى في سورة الأنبياء (يوم نطوى السماء كطي السجل
للكتب) •

وقد حوى القرآن من منهج العلم ومن محتوى الثقافة والفكر
وما يتصل بهما من أساليب النظر العقلى مما اضطر معه العرب الى التبحر
في كل صنوف المعرفة لفهمه وإدراك معانيه فدرسوا اللغة والأدب وتبحروا
في دراسة التاريخ والجغرافية ودرسوا كتب أهل الكتاب وغيرهم من
أصحاب النحل والمذاهب ، واستعانوا بها في التفسير ودرسوا علوم
الطبيعة لإدراك معنى الآيات الكونية الواردة في القرآن الكريم فتبحروا
في الفلك والكيمياء والرياضيات والهندسة والطب وما إليها ودرسوا
الفلسفة والأخلاقيات للاقتراب مما ورد في القرآن من اشارات للظاهرة
الانسانية والظاهرة الاجتماعية وتفاعلهما مع مظاهر الكون المحيطة بهما
وفي سنوات معدودة تغير مناخ جزيرة العرب الثقافى فأصبحت مهدا
لحضارة بلغت في مدى قرن من الزمان بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه
وسلم قمة من قمم الانجاز العقلى في كل مجالات الحياة الانسانية •
والذى لا جدال فيه أن القرآن كله دعوة للعلم والثقافة وإعمال الفكر
وكيف لا والقرآن الكريم يقول : (هل يستوى الذين يعلمون والذين
لا يعلمون) ، وقد رفع الله من قدر العلماء فقال جلت قدرته (يرفع الله
الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات) ، ومن ثم كان الاسلام
من الديانات النادرة التى كان طلب العلم فيها فرضا دينيا لا يكون
المسلم مسلما الا بتنفيذه لأن معرفة الدين تحتاج الى توسع كبير فى طلب
العلم ولهذا السبب كانت المجتمعات المسلمة حتى فى عصور الظلام
والتخلف من أكثر شعوب الأرض حبا للعلم وطلبا له لأن من أراد أن
يقرأ القرآن للتعبد فلا بد له من تعلم القراءة والكتابة • وليس من قبيل

الصدق أن تسمى مجموعة الأحكام الشرعية والقانونية في الاسلام
بالفقه أى العلم وحسن الادراك ، ومما يكمل هذا المنحى العقلى فى تناول
الشريعة اعتبار الرأى والقياس مصدرا من مصادر استنباطها الأربعة بعد
الكتاب والسنة والاجماع واتخاذ الاجتهاد سبيلا الى توسيع دائرة
التشريع واثراء محتواه . ولارتباط العلم الوثيق بفهم الاسلام وابرار
مرايمه وردت الأحاديث عن طلب العلم ولو فى الصين وعن تفضيل العالم
على العابد ، وعن ترجيح مداد العلماء على دم الشهداء ، وعن وراثة العلماء
للأنبياء ، وقد وصف القرآن كثيرا من الأمم السابقة التى تنكبت طريق
الهداية بأنهم قوم لا يعلمون وتكررت عبارة (ولكن أكثر الناس
لا يعلمون) مرات عديدة .

ولأهمية العلم كانت لفظة العلم ومشتقاتها من أكثر ألفاظ القرآن
دورانه اذ تكررت أكثر من ثمانمائة مرة ، ولكن العلم فى القرآن مقرون
بالايمان ويكفى فى هذا أن أول آية نزلت فى الأمر بالقراءة قرنت القراءة
باسم الله الذى خلق ، فهى ليست قراءة من أجل القراءة أو من أجل
التسلية أو من أجل الأهواء وانما هى قراءة موجهة بالايمان بالله ، وقد
تكررت فكرة الايمان ومشتقاتها أكثر من ثمانمائة مرة أيضا (٨١٧) .
وكما اقترن العلم بالايمان فى القرآن الكريم فان الايمان مقترن فيه
بالعمل وقد تكررت فكرة العمل ومشتقاتها أكثر من ثلاثمائة وخمسين
مرة . وقد تكرر هذا الاقتران فى عدد كبير من الآيات كقوله تعالى فى
سورة الطلاق ١١ (ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا يدخله جنات تجري
من تحتها الأنهار) وكقوله تعالى فى سورة النساء ٢٤ (ومن يعمل من
الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة) ولقوة
هذه الصلة بين الايمان والعمل وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم
الايمان فقال ما معناه : (ليس الايمان بالتمنى ولكن ما وقر فى القلب
وصدقه العمل وان قوما رحلوا من الدنيا وليس لهم عمل وقالوا نحسن
الظن بالله ، كذبوا لو أحسنوا الظن بالله لأحسنوا العمل) . ولذلك لا عجب
أن اعتبر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) كثيرا من مظاهر السلوك

والمعاملات شعبا من شعب الايمان ، فقد ورد عن أبى هريرة رضى الله عنه انه قال - قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (الايمان بضع وسبعون أو بضع وستون شعبة فأفضلها قول لا إله إلا الله وأدناها إمطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من الايمان) رواه مسلم .

فالإيمان فى الاسلام أسلوب حياة يمتزج فيه الدينى بالديوى ويختلط فيه المعنوى بالمادى اختلاط الروح بالجسد فينصهر الجانبان فى وحدة عضوية لا ينفصل فيها أحدهما عن الآخر . وهذه الوسطية التى جاء بها الإسلام لإحداث التوازن فى نفس الإنسان ، وفى علاقات المجتمع وفى صلة الانسان بالكون ، ملحوظة فى كل نظم الاسلام وأفكاره . فقد رفض الاسلام مادية اليهود وتكالبهم على الدنيا ورفض فى نفس الوقت رهبانية النصارى وابتعادهم عن الدنيا وأمر الناس بالتوسط فقال جل من قائل فى سورة الأعراف ٢٩ (قل أمر ربي بالقسط) ثم وضع هذا القسط فى طلب الدنيا فقال ٣٢ - ٣٤ (يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا انه لا يحب المسرفين . قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك تفصل الآيات لقوم يعلمون . قل انما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والاثم والبغى بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون) صدق الله العظيم .

ولكى يؤكد القرآن مفاهيم الحضارة ونماذجها الفاعلة استعار كثيرا من ألفاظ الحضارة للتعبير عن مختلف الأفكار . فاستعمل كلمات التجارة مثل كلمة الشراء التى تكررت فى خمس وعشرين موضعا للدلالة على اكتساب الفضائل أو الرذائل كقوله تعالى فى سورة البقرة ١٦ (أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى) وكقوله فى سورة آل عمران ٧٧ (ان الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا أولئك لا خلاق لهم فى الآخرة) ويستعمل كلمات البيع والتمن والبضاعة والكيل والميزان والقسطاس وكلها من ألفاظ المعاملات المادية للتعبير عن الأفكار والمعانى .

ويضرب الأمثال بنماذج متطورة من ابداع الانسان كالحدايق الغناء
التي ييذل فيها أهلوها الجهد الكبير ولكنها تذهب هباء لجحود أهلها •
وحب الناس للدنيا وزينتها أمر قامت عليه الشواهد وهو في فطرة
الانسان وقد أكثر القرآن الكريم من الاشارة اليه كقوله تعالى في
سورة آل عمران ١٤ (زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين
والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث
ذلك متاع الحياة الدنيا • والله عنده حسن المآب) وما دام حب الدنيا
في فطرة الانسان فالحل لمشكلة الغنى ليست بالتخلي عن الدنيا وانما
بتوجيه الأغنياء للاتفاق منها على المحتاجين والفقراء ولذلك ركز القرآن
على فكرة الاتفاق التي تكررت في أكثر من سبعين موضعا منه ، وقد
اقترن فيه الاتفاق بالايمان والعبادة في كثير من الآيات كقوله تعالى في
سورة البقرة ٣ (الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم
ينفقون) وجعل قمة التقوى «الاتفاق» في قوله تعالى في سورة آل عمران
٩٢ (لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون) ويكفي في هذا المقام أن
الزكاة ركن من أركان الإسلام إضافة إلى ما ورد في القرآن من حث على
التصدق مما يجعل من نظام الاسلام نظاما لا يقوم على فكرة المساواة
التي تتحدث عنها كثير من المذاهب المعاصرة بقدر ما يقوم على فكرة
الايثار والتضحية في سبيل الآخرين لقوله تعالى في سورة الحشر ٩
(ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة • ومن يوق شح نفسه
فأولئك هم المفلحون) • وهذا الايثار وما يتصل به من بر واحسان
وعمل صالح مفيد يدخل في حيز الباقيات الصالحات التي ذكرها الله
سبحانه وتعالى في قوله الكريم في سورة الكهف ٤٦ (المال والبنون
زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا) •
وميزان التعادل في ذلك يحكمه القول المأثور (اعمل لدنياك كأنك
تعيش أبدا واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا) •

أخلص من كل ذلك الى أن القرآن الكريم لخص بين دفتيه نموذج
المجتمع الحضري الذي يمتزج فيه الدين بالدنيا لخلق الفرد المتوازن

جسما وعقلا وروحا والذي ترسبت في ضميره وعقله قيم المجتمع بحيث
 أصبح الفرد مجتمعا في فرد ودولة داخل الدولة . وهذه الصياغة
 الجماعية لشخصية الفرد المسلم هي التي حفظت للمجتمع المسلم تماسكه
 وقوته في كل عصور الانحطاط والاضطراب . وكل ذلك يشير الى أن
 هذا النموذج البشري الذي نجح الاسلام في تشكيله هو الحل الحاسم
 لمشكلة المجتمع الحضري القائم على الاقتصاد المتطور الذي يزعزع كيان
 المجتمع ويدمر العلاقات الاجتماعية والانسانية بحيث لا يستطيع
 القانون ولا قوى الامن ردع أطماع الطامعين وتطلعات ذوى الشهوات
 والرغبات ، ولا سبيل الى الوقوف أمام سيل هذه الرغبات الجامحة
 التي تغذيها حضارة الاستهلاك الا بأن ينبع الرادع من الداخل ، وأن
 يكون جزءا من كيان الفرد وضميره ، وهو ما يهدف اليه الاسلام من
 صياغة الفرد صياغة اجتماعية تتوجه فيها كل طاقاته الروحية والفكرية
 والجسدية لتحقيق خلافة الله على الأرض بخلق المجتمع القوى الذي
 يطور الحياة ويرقى بالانسان . وهو يتخذ من الفكر منهجا لتحقيق هذه
 الرسالة التي يمتزج فيها الايمان بالعمل ، ويهتدى فيها الانجاز بنور العلم ،
 لتحقيق الوسطية التي اختص الله بها أمة القرآن في قوله تعالى (وكذلك
 جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم
 شهيدا) . وتحقيق هذه الوسطية ليس حلا لمشكلة المسلمين وحدهم ،
 وانما هو حل لمشكلة الانسانية في عصر الصناعة والاقتصاد المتطور على
 مدى الزمان . ولهذا السبب انتهت الرسالات وختمت النبوات وأصبح
 واجب المسلمين هداية البشرية لكلمات الله التي لا تبديل لها لانقاذ
 مستقبل الانسانية التي تتخبط في ظلمات الحس والأنانية من جراء غلبة
 النظرات المادية ذات الاتجاه الواحد التي تحسب أن تقدم الانسان في
 اشباع البطن وتحقيق رغبات الحس دون اهتمام بحاجات العقل والروح
 وتطوير انسانية الانسان .

والسؤال الذي يتبادر إلى الذهن هو : ما الذي بقي في حياة
 المسلمين من الاسلام بحيث يكونوا شهداء على الناس كما أراد الله لهم

أن يكونوا ليستحقوا شهادة الرسول عليهم ؟ والأمر المؤكد أن المسلمين جميعهم صياغة حقيقية للإسلام كما تهيأ له أن يدخل في حياتهم وبالتالي فإن هذه الصياغة تتفاوت في الدرجة والكيف خاصة وأن معظم العالم الإسلامي المعاصر قد برز إلى الوجود وحضارة الإسلام في حالة جذر وضمور ولكن نور الإسلام كامن في النفوس والقلوب وأن حجبه من الإشعاع على حياة الناس رواسب القرون ومخلفات عهود الجهالة والجمود التي استغلها المستعمرون في العصور الحديثة لتعطيل فعالية الإسلام في حياة المسلمين وعقولهم • ومن الحقائق التي يجب أن يتنبه لها المسلمون : أن الإسلام دين حركة وثقافة وعمل ، وكلما تراخى المجتمع وفتر نشاطه تقلصت بالتالي فعالية الإسلام في حياته • ولهذا السبب لم يجمد الإسلام طوال تاريخه على مستوى حضارى بعينه ، بل كان يهجم على كل ثقافة وفكر ويحوره ويهضمه في بوتقته الفاعلة ليخرج نتاجا إسلاميا يزداد به ثراء المجتمع المسلم • فلم يكتف المسلمون الأوائل بمجرد قراءة القرآن والحديث ، ولم يظلوا عاكفين عليهما دون تفكير وتأويل ودون تلاقح مع تجدد الأحوال والظروف بل اعملوا فيهما الذهن وعبروا عن نمو حضارة الإسلام في حياتهم عربيا في البداية مما برز في علوم اللغة والقرآن والحديث ثم كلاميا حين انتقلوا إلى الأمصار واتصلوا بأصحاب الحضارات القديمة في فارس والروم ثم فلسفيا حين ترجمت فلسفة اليونان إلى العربية ثم علميا حين تعمق المسلمون في التراث الحضارى الذى وصلهم عن أصحاب الحضارات إلى جوارهم ، وفى كل هذه الاطوار كان الإسلام يتجدد ويزداد غنى وثراء باتساع آهابه للتعبير عن كل جديد يطرأ على حياة المسلمين اقتصاديا وثقافيا واجتماعيا ودينيا • ولأن الدين فى الإسلام هو عمود الحياة الفقرى فقد كان ازدهار هذه الحياة زراعيًا وتجاريًا وسياسيًا ينعكس على الدين حيوية وفعالية مما جعل من الفقه الإسلامى تعبيرًا صادقًا عن حركة الحياة فى كل ميادينها الاقتصادية والزراعية والتجارية والاجتماعية عامة . وحين تقلص نشاط المجتمع بانحيار الدولة المركزية واستفحال الاضطراب فى عصور الغلام وما تبع كل ذلك من تدهور الزراعة واضطراب التجارة

وتقلص النشاط الاقتصادي عامة وانهار النظام الإداري والسياسي بحيث ارتد العالم الإسلامي إلى ضرب من الاقتصاد البدائي تقلص بالتالي نشاط المجتمع الثقافي والفكري الذي كان ينبثق من حركة المجتمع ويعبر عن حيويتها فاندثرت العلوم الطبيعية وقل اهتمام الناس بقضايا الزراعة والاقتصاد والتجارة وانعكس كل ذلك على الحركة الفقهية التي كانت تزدهر غنى وثراء بالاستفادة من كل هذه العلوم والمعارف لتصبح أكثر قدرة على التعبير عن حركة الحياة ونمو المجتمع على الصعيد الفقهي والتشريعي. لقد كانت كل حركة المجتمع الاقتصادية والثقافية والعلمية رافداً حيويًا يمد الحركة الدينية بالغذاء ويمنحها القدرة الذاتية على مسابقة الزمن للبحث عن كل القضايا التي تلم بالمجتمع وتحتاج إلى الحل الحاسم على مستوى التشريع. ولهذا السبب كان كل علمائنا الأوائل موسوعيين في ثقافتهم بحيث كانوا يلمون بكل معارف العصر ليتمكنوا من التعبير عن روح العصر وينتقل الإسلام بعقولهم ومداركهم إلى مرحلة أعلى في سلم الرقي والكمال. وحين وقفت حركة المجتمع ووقفت معها حركة العلم المعبرة عنها وقفت حركة الاجتهاد في الفقه واقتصر النظر فيه على العبادات وما يتصل بالأحوال الشخصية وبعض المعاملات دون سائر النشاط الإنساني الآخر وظل الخلف يتلقى عن السلف ما ورثه عن آباءه في تقليد وتسليم في الوقت الذي جرت فيه قضايا كثيرة وتغيرت أحوال المسلمين مما يحتاج الأمر معه إلى الحلول الفقهية التي تسلك تجربة المجتمع الحديث في إطار نظام الإسلام الفقهي والتشريعي. وحين عجز العلماء عن ذلك دخلت في حياة المسلمين ألوان وألوان من المعاملات والاقتباسات لا تدخل في إطار الشريعة، ولكن حركة الحياة التي لا تقف لا تترك للناس الخيار، فإن الحياة لا تقف لأن عقول الفقهاء والعلماء قد وقفت عن الاجتهاد. ويقيني أن ما يحدث في العالم الإسلامي اليوم من حركة ونشاط بعد هذه القرون الطويلة من الجمود والتحجر التي انفصل فيها المجتمع المسلم عن حيوية تراثه ستنعكس على فكرنا الديني بحيث تدب فيه الحياة كنتيجة للحركة الشاملة التي بدأت تنظم حياتنا الاقتصادية

والثقافية والاجتماعية ، فيصبح هذا الفكر الدينى - كما كان فى سابق عهده - تعبيراً أصيلاً وصادقاً عن حركة الحياة فى شمولها - واتساعها •
وعندها لا تصبح ثقافتنا الدينية قاصرة على العبادات وحدها كما هو الحال فى عصور الجمود والتخلف - وإنما تصبح شاملة لكل قضايا العصر التى تواجهنا على كل المستويات العلمية والاقتصادية والسياسية والاجتماعية •
فإن تراثنا ليس مجرد ثقافة وإنما هو الأساس الفلسفى والفكرى لسلوكنا العام والخاص والقرآن ليس نصاً للتلاوة والتبرك فحسب بل هو دستور حياتنا والمرشد العملى لكل تصرفاتنا ومقدار حيوية المجتمع المسلم تعتمد على اتخاذ القرآن والسنة وكل تراث الاسلام منهجاً للعمل والسلوك لا لمجرد التلاوة والتشديق بالألفاظ • وبذلك وحده يعيش الاسلام فى حياتنا وتنبض شخصيتنا القومية بالحياة والفعالية لأننا بدأنا نعيش حضارتنا بدل أن نجتر قوالها ونصوصها فى تقليد سالب ونصل شخصيتنا بمنابع ابداعها ونربطها بجذور أصالتها الواردة فى القرآن والسنة والمعبر عنها فى كل انجاز حضارتنا الاسلامية • اننا جميعاً الصورة الكامنة لحضارتنا وقد تعاودت عليها ظروف الجمود والتخلف والانهيار ومخططات الاستعمار ففقدت مع الزمن قدرتها الذاتية على الحركة والتطور •

والآن وقد تخلصنا فى معظم عالمنا الاسلامى من الاستعمار المباشر فى صورته العسكرية والسياسية الذى شل قدرتنا على الحركة ، فإن واجبنا الدينى والقومى أن نتابع معركة التحرر الوطنى ونصل بها الى غايتها المنطقية بأن نرصد ثورتنا السياسية التى أخرجنا بها الاستعمار المباشر بثورة حضارية نعيد بها النظر فى كل مجالات حياتنا فننفى عن وجودنا كل مظاهر التخلف والجمود وموروثات الاستعمار ونظمه ، فنستعيد بذلك أنفسنا ونرسى دعائم تقدمنا على ركائز ثابتة فى أرضية حضارتنا بحيث تنطلق كل أوجه نشاط المجتمع من استراتيجية اسلامية كبرى تتخذ من القرآن الكريم وسنة رسوله العظيم وموروث حضارتنا مرتكزها الأساسى ، وبذلك يكون جهدنا الوطنى فى كل قطر من أقطار

الاسلام نابعا من ضمائرنا محققا لذواتنا مطورا لوجودنا في انفتاح على
روح العصر .

ونحن لا نبني بذلك أوطاننا فحسب وانما نبعث في نفس الوقت
حضارتنا ونسهم بما تقدمه من انجاز في دفع حركة التحرر الثقافي في كل
عالمنا الثالث الذي يدرك أن معركة المستقبل هي معركة حضارية في
الصميم ، ولا بقاء فيها الا للصامدين المؤمنين بأنفسهم المحققين
لذواتهم . وفي قيامنا بهذا الواجب نحقق صلاح ديننا وصلاح دنيانا
مهتدين بقوله تعالى (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف
وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله) صدق الله العظيم والسلام عليكم
ورحمة الله تعالى وبركاته .



أزمة التعليم المعاصر وحلولها الإسلامية (٣)

د • زغلول راغب النجار

استراتيجية التربية الإسلامية :

تعرف الاستراتيجية عادة بأنها صياغة الاختيارات في مجموعة من الإجراءات لتحديد ما يجب عمله تبعاً للحالات التي قد تعرض في المستقبل • وليس المقصود بالاستراتيجية هو مجرد الانتقال بالمبادئ إلى الصعيد العملي حتى تصبح واقعا ملموسا ، بل تقديم العناصر التي يمكن الاعتماد عليها في التخطيط لانجاز الأهداف • والسياسة التربوية هي الخطة التي تحدد فيها الاختيارات الرئيسية للدولة في هذا المضمار ، وهي تصاغ كتابة من قبلها ، أو من قبل المفوضين منها للقيام بهذه المهمة ، مع مشاركة أفراد الأمة في وضع تلك السياسة أو الحصول على موافقتهم الضمنية عليها ، فالسياسة التربوية لا بد أن تعبر عن عقيدة الأمة ، وتقاليدها ، وقيمها ، وأهدافها الرئيسية من الحياة ، وتصورها للمستقبل ، وعلى ذلك فلا بد في تحديد السياسة التربوية من التأكد من أن أهدافها المحددة مستخلصة من الاتجاهات العامة لسياسة البلاد ، ومتماشية مع كل من أهدافها العامة ، والأهداف المحددة في القطاعات الأخرى ، وفي ذلك كتب فور ومن معه (١٩٧٤ ص ٢٣٤) ما نصه : « ان السياسة

التربوية لا تنحصر في رسم بعض المبادئ التوجيهية العامة ، بل لابد من أن تشمل على مجموعة من الأهداف الخاصة المترابطة فيما بينها ترابطا قويا ، ومن بينها الأهداف ذات الطابع الروحي والفلسفي والثقافي ، مما يقدم فكرة واضحة عن مفهوم الانسان ، ويعمد بعد هذا الى تحديد الأهداف السياسية المتماشية مع الاختيارات القومية الكبرى . ويمكن بعد ذلك تحديد الأهداف الاجتماعية والاقتصادية التي تتضافر فيما بينها لتحقيق الغاية المنشودة ، طبقا لفلسفة المجتمع في الحياة ، ولتطلبات التنمية . وبعد هذا ، تحدد الخطوط العريضة للأهداف التربوية التي هي الشرط الأساسي لتحقيق الأهداف الأخرى المرسومة من أجل تنمية البلاد . وأخيرا ، تحدد الأهداف المحصورة في النطاق التربوي ، ويجب أن تعبر تعبيرا صادقا عن الاتجاهات السائدة في المؤسسات التربوية وفي التعليم على اختلاف مراحله .

« وبعد تحديد الأهداف ، لا يكفي ادراجها في قائمة ، بل لابد من تصنيفها بحسب الأسبقية ، وتسجيلها ضمن مخطط متماسك ، وعندئذ فقط يمكن أن نطلق عليه تسمية السياسة التربوية » .

أما الاستراتيجية فهي الحلقة الوسطى بين السياسة من جهة ومنهج التخطيط من جهة أخرى ، ولكي تقوم الاستراتيجية التربوية بدورها كاملا : لابد أن تكون شاملة لجميع أشكال التربية ومختلف مستوياتها ، ومتكاملة مع الأهداف السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، وطويلة المدى بدرجة معقولة ، وعلى قدر من المرونة يسمح لها بمسايرة تطور الاختيارات السياسية ، كما يجب أن تكون مضبوطة ضبطا دقيقا (حتى يمكن للتخطيط أن يقوم على أسس سليمة) ، وديناميكية تأخذ بعين الاعتبار عمليات التطور المبدع والتجديد بصورة مستمرة .

أما التخطيط : فالهدف منه هو تيسير مهمة اتخاذ القرارات ، وهو لا ينحصر في تحديد مجموعة الأهداف والسعى لتحقيقها فقط ، بل لابد له من اتهاج طرائق معينة مدروسة ، وتوفير الوسائل اللازمة للنجاح ، ومن الضروري أن يكون التخطيط عملية متواصلة وذلك لأن الواقع الاجتماعي

في تغير مستمر ، وكذلك وسائل التحليل والتقييم في تحسين وتطور
دائمين •

وليس المقصود بالتخطيط هنا هو التحكم في العملية التربوية تحكما
قميا يشل من فاعلياتها ، وانما رسم الاطار العام لضمان التوحيد ، مع
ترك قدر كبير من الحرية للقائمين فعلا بالعملية التربوية ، وفي ذلك كتب
فور ومن معه (١٩٧٤ ، ص ٢٣٦) ما ترجمته « على أن التخطيط سوف
يزداد أهمية اذا ما توسع وخرج عن نطاق المدرسة ليشمل جميع ميادين
التربية ، شريطة ألا يقع المسؤولون في نظام الادارة التوجيهية المستبدية ،
وأن لا يخلطوا بين التخطيط الشامل المفيد ، والتخطيط الكلى
الاستبدادي المضر » •

من هذا العرض يتضح أنه لا يمكن للتربية الاسلامية الشاملة
أن تقوم في ظل حكم غير اسلامي ، وفي نفس الوقت لا يمكن لحكم
اسلامي أن يقوم بغير تربية اسلامية شاملة ••• ، وعلى ذلك فلا بد من
كسر هذا الطوق الذي فرض على الأمة الاسلامية ، وأيسر الطرق الى
ذلك هو العمل على اقامة مؤسسات التربية الاسلامية الشاملة (من رياض
الأطفال الى الجامعات) بجهود شعبية هدفها تربية الشباب المسلم الذي
يخرج للحياة رافعا راية القرآن في ذاته وفي أهله وفيمن حوله حتى يقيم
شرع الله في الأرض •

ومن هذا العرض أيضا يتضح أنه لا يوجد في الوقت الحاضر
سياسة تربوية اسلامية (بمعنى قيام العملية التربوية بمختلف مستوياتها ،
وتعدد نشاطاتها على التصور الاسلامي الصحيح للانسان والكون
والحياة ، وبمعنى ألوهية الله) باستثناء بعض البادرات الخيرة التي
تنشط بصورة محدودة في أجزاء متناثرة في العالم الاسلامي ، وتبعاً
لذلك لا توجد استراتيجية محددة ولا تخطيط مقنن ، ولكن انطلاقاً من
فلسفة التربية الاسلامية وأهدافها ، وقياساً على نظمها الرائدة التي حققت
من النجاح ما لم تستطع نظم التربية المعاصرة — بكل امكانياتها المادية ،

وبكل ما تجمع لها من التجارب التربوية - تحقيقه يمكن وضع خطوط عريضة لما يجب أن تكون عليه استراتيجية التربية الإسلامية في وقتنا الحاضر - بكل تحدياته - في النقاط التالية :

(أ) في نطاق النظم التربوية :

١ - الاهتمام بالتربية قبل المدرسة : فالتربية الإسلامية لا تقصر اهتماماتها في إطار المعهد التعليمي فحسب ، بل توجهها الى الانسان من لحظة ميلاده الى نهاية عمره ، بل تهتم به قبل مجيئه الى هذه الدنيا ، لأنها تشترط العلاقة المشروعة بين الأبوين ليخرج الطفل الى هذه الحياة على صورة يرضاها الله والناس ، كما تشترط حسن اختيار كل من الوالدين لأن للموروثات أثر في تكوين الجنين الذي يحمل نصف صفاته عن الأب والنصف الآخر عن الأم ، وهذه أحاديث رسول الله (عليه الصلاة والسلام) تنبها الى ذلك « تخيروا لنطفكم فان العرق دساس » ، « ... فاختر ذات الدين ، تربت يداك » ، « اغتربوا لا ترضوا » .

والتربية الإسلامية تنص على حسن اختيار اسم الوليد « أحسنوا أسماءكم فانكم ستدعون بها يوم القيامة » ، وتؤكد على ضرورة حضانة الأم لطفلها حتى يكبر ، وتعتنى عناية بالغة باليتيم وتؤكد على حقوقه تأكيداً مشدداً ، وتهتم بتأسيس البيت المسلم على أسس إسلامية ، في تخطيطه وبنائه ، وفي أصوله وتقاليده ، وفي عقيدته وعباداته وأخلاقه ومعاملاته ، وفي نظامه وترتيبه ، وفي حقوق كل فرد فيه . فهنا يتربى الطفل - منذ بدء ادراكه - بالمحاكاة والتقليد ، ويتطبع بطباع أهله وعاداتهم ، ويتأدب بالتلقين والموعظة والزجر والعقاب (اذ لزم) ، ويقتدى بالقدوة الحسنة ، ومن هنا لزم وجود الولي الذي يحسن التربية ويتقن التوجيه . فهذا رسولنا الكريم يؤكد على مسؤولية الآباء تجاه الأبناء بقوله : « يولد المولود على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » ، وقوله « مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين ، واضربوهم عليها وهم أبناء عشر وفرقوا بينهم في المضاجع » .

كما توصى التربية الاسلامية بحقوق البنوة وحسن القيام بواجباتها فلا يجوز للآباء أن يرفضوا أطفالهم أو يبالغوا في حمايتهم • أو أن يفضلوا أحدا على أحد ، أو أن يغالوا في تشددهم ، أو يسرفوا في تساهلهم ، وذلك حتى تتربى نفوسهم تربية سوية هادئة ، لا تعكرها المشاكل والعقد من الصغر فتفسد فطرتها الربانية السليمة •

٢ - الاهتمام بمعاهد التربية والعمل على نشرها : فالتربية الاسلامية تولى المدرسة والمعهد التعليمى عناية بالغة ، عناية بالمعلم والإمكانات والبناء والإدارة ، فهى تشترط حسن اختيار المعلم • دينيا وخلقا وعلميا . لأنه هو المثل الأعلى للطالب . خاصة فى المراحل الأولى من التعليم • فإذا صلح المعلم صاحت العمالية التربوية ، وإذا فسد فسدت كلها ، وتشترط الإدارة الحكيمة المدرسة ، وتوفير الإمكانيات اللازمة ، والمبنى المناسب ، بغير اسراف ولا تقتير ، ولا بذخ ولا تقصير ، لأن كل قرش يفيض عن الحاجة الضرورية يمكن الاستفادة به فى انشاء معهد آخر ، وتعليم أناس آخرين • وفى هذا الصدد تجدر الإشارة إلى أن التعليم فى الإسلام بدأ فى المسجد وارتبط به • وهكذا يجب أن يكون أى نظام تربوى تؤسسه • بمعنى : أن يكون المسجد هو المركز الذى يدور عليه بناء أية مدرسة أو معهد تربوى • هو مكان الصلاة ، وقاعة الاجتماعات والمحاضرات والندوات ، والمكتبة مرتبطة به ، والمبنى كله يدور حواليه ، ونحن فى ذلك محتاجون إلى مهندسين مسلمين يبرعون فى إعادة تخطيط مراكزنا التربوية بما يوفى كل احتياجات العصر ، على هذا النهج الاسلامى •

كذلك تجدر الإشارة الى أن المبالغة فى البناء وفخامته سواء فى المسجد أو المعهد التربوى هو أمر مخالف لتعاليم الاسلام وأصوله ، فيجب أن يكون المبنى بسيطا ، نظيفا ، وافيا بالاحتياجات الضرورية فى غير إسراف أو مبالغة . وذلك لأن التربية حق من حقوق كل مولود ، وطلب العلم فريضة على كل مسلم بالغ عاقل ، وعليه : فمن الواجب أن تتاح فرصهما لكل فرد فى المجتمع ، لا فى فترة محددة من عمره فحسب ، بل

طوال حياته ، وبالتالى فلا بد من زيادة عدد المؤسسات التربوية ، وتسهيل عملية الانخراط فيها ، وتمكين كل فرد من اختيار ما يلائمه منها . وهنا لا يجوز الاسراف ولا المبالغة فى تشييد مراكز التعليم والاتفاق عليها ، حتى تفتح أبوابها لنفر من الناس دون الآخرين ، بل لابد من تخفيض تكاليف انشائها وادارتها حتى يمكن مضاعفتها أضعافا كثيرة تستوعب كل فرد فى الأمة ، خاصة فى المراحل التربوية الأولى . ويتم توفير التعليم الابتدائى لجميع الأطفال فى السن المناسب ما أمكن ، وبطرائق أخرى متعددة اذا لزم الأمر ، وكذلك تقليص أسباب الهدر التعليمى ، والعمل على إعادة تأهيل الفاشلين دراسيا .

إذا كانت التربية الإسلامية تهتم بتوفير المؤسسة التعليمية الصالحة معلما ، ومبنى ، وإدارة ، وإمكانات ، فهى تهتم أيضا بطهارة المجتمع المدرسى وتأسيسه على الأخلاق القرآنية الكريمة ، وتهتم بالمجتمع الكبير خارج حدود المعهد التربوى ، وبقيمه التى تنطبع فى ذهن الصغير من البداية حتى تكاد تصبح جزءا من نفسه ، ومن هنا فنظام التربية الإسلامية يقوم على الربط الوثيق بين البيت والمسجد والمدرسة والمجتمع ، ربطا لا ينفصل ولا يتجزأ .

٣ — بناء النظم التربوية على أساس من الشمول والاستمرارية : الشمول الذى يهتم بتنشئة الانسان الصالح وذلك بانماء جسده على أسس علمية صحيحة حتى ينشأ قويا سليما معافا . وهداية روحه هداية ربانية نورانية حتى ترتبط بالله ، وتأديب نفسه على الالتزام بالأخلاق القرآنية السامية ، حتى يصبح ذلك جزءا لا يتجزأ من كيانه ، وتنمية عقله . وذلك بتدريبه على حسن التفكير ودقة الاستنتاج ، وعمق النقد الهادف البناء ، حتى يتسم بالحكمة فى كل ما يصدر عنه من قول أو عمل ، والتعرف على مختلف ملكاته ومهاراته وحسن توجيهها حتى تتم تنميتها الى أقصى طاقاتها مما يعينه على القيام برسالته فى هذه الحياة وعمرانها ، والتنسيق بين كافة عناصر العملية التربوية (المعرفة ، الفهم ، الاتجاهات العقلية ، الحوافز ، الاستعدادات العلمية) وزيادة

الاهتمام بالفرد وتربيته حسب قدراته • والاستمرارية هنا تعنى إتاحة الفرصة لكل فرد فى التزود من المعرفة باستمرار ، وبغير قيود مسبقة ، وتكامل المؤسسات التربوية مع مؤسسات المجتمع الأخرى ، وتحديد التزامات قطاعات العمل والاتاج تجاه تدريب العمال والفنيين وتثقيفهم باستمرار ، وتوثيق الروابط بين المجتمع والتعليم ، وبين الصناعات والجامعات ومراكز البحوث ، فكلها من العناصر الأساسية فى نظام التربية الشاملة المستمرة •

٤ — عدم الفصل بين المعارف وبالتالي عدم تقسيم التربية الى دينية ودنيوية ، فهذا الفصل انتقلت عدواه الى بلاد المسلمين من النظم التربوية العلمانية ، فالاسلام — على الرغم من اهتمامه الزائد بالتخصص فى الدراسات الاسلامية — الا أنه لا يعرف كهنوتا كما هو موجود فى « الديانات » الأخرى ، ولا يهمل أى جانب من جوانب المعرفة الانسانية • وهو يهتم بتنمية المهارات اليدوية والمهنية • فهؤلاء هم أنبياء الله ورسله كلهم من أصحاب الحرف ، وكل منهم كان يأكل من عمل يده •

والفصل بين المعارف إلى دينية ودنيوية : قد عزل العلوم الدينية عن ركب الحياة ، ومشاكلها ، وتطورها ، مما زهد الناس فيها ، ودعاهم الى هجرها ، كما عزل العلوم الدنيوية عن الحكمة ، وجعلها تدور فى الأطر المادية للأشياء فقط ، مما أدى الى رفض المتدينين لها ، وفقدان حماسهم للاهتمام بها • والحل لا يمكن أن يكون فى رفض هذه المعارف فهى تراث الانسانية كلها ، ووسيلتها إلى عمران الحياة على الأرض ، ولا يمكن أن يكون فى فرضها (وهى لا تزال تنطلق من منطلق الجادى منكر) على المسلمين دون إعادة صياغتها حسب التصور الإسلامى الصحيح (كما حدث مع الأزهر الشريف) ، لأن ذلك يعنى « علمنة » مراكز التربية الإسلامية بدلا من « أسلمة » الجامعات والمراكز العلمية المختلفة التى أسست — وتؤسس اليوم فى العالم الإسلامى — على أسس علمانية صرفة ، فاذا كان أعداء الإسلام قد خططوا للقضاء على مراكز التربية العريقة التى عملت على حفظ الاسلام ولغة القرآن قرونا طويلة ، فليعمل المسلمون لأسلمة المعارف الإنسانية كلها ، وبالتالي توحيد

الفكر التربوى فى جميع مؤسساته فى العالم الاسلامى ان لم يكن فى العالم بأسره .

هـ — جعل المحور الحقيقى للعملية التربوية هو الانسان بوصفه خليفة الله فى الأرض ، والكائن الحى العاقل المختار المكلف ، صاحب الملكات والمواهب ، والذى سخر الله تعالى له الكون كله .

والانسان هنا مقصود بطرفيه فى العملية التربوية : المربى والمتربى .

فكما يشترط فى المربى كمال الدين واستقامة الخلق وغزارة العلم وحسن التدريب على القيام برسالتهم التى هى فى صميمها استمرار لرسالة الأنبياء . فيجب الاهتمام بهم اهتماما يعكس الشعور بخطورة رسالتهم وذلك بحسن اعدادهم أولا . ثم بمنحهم ما يستحقون من التقدير المعنوى (الاحترام والثقة) ، والمادى (المرتبات ، والتسهيلات فى الحياة) حتى يتفرغوا لمهامهم التربوية تفرغا كاملا ، ويشعروا بثقة المجتمعات فيهم . لأن الثقة تولد الرغبة فى الكمال ، فيرقوا بأنفسهم الى مستوى المسؤولية الملقاة على عاتقهم ، كذلك لا بد من اعطائهم الحرية الكاملة لتربية أبنائهم الطلاب بالطريقة التى يجيدون ، والتى قد تتباين بتباين الأساتذة ، بل وتتباين الطلاب أنفسهم قدرة ومهارة وميلا ، وأخذ عامل التباين الفردى هذا فى الحسبان لأن كل فرد كيان قائم بذاته ، فالطلاب يختلفون فى طبائعهم ، وقدراتهم ، وامكانياتهم للتعليم ، ورغباتهم فيه ، وتهيؤهم النفسى له ، ومستوى ادراكهم بصفة عامة ، وحتى فى الطالب الواحد : يتباين ذلك كله بتباين مراحل النمو ، وزيادة النضج واكتساب الخبرة . ومن هنا كانت ضرورة المواءمة بين مرحلة النمو والقدرة على التعلم ، وهنا يجدر التنبيه الى أهمية التعليم باللغة الأم ، مع عدم إهمال تعليم لغات أخرى — خاصة اللغة العربية — إذا لم تكن هى اللغة الأم ، والعمل على اكساب الطالب المعرفة على هيئة خبرة شخصية تكتسب بالممارسة ، وليست تلقينا لفظيا مجردا . فالتلقين

اللفظي لا يجوز الا في حفظ كتاب الله • وذلك أملا في الاستفادة من الذاكرة الصافية التي يتمتع بها الانسان في مراحل حياته الأولى •

والمساواة في التربية ضرورة من ضرورات قيامها برسالتها على الوجه الأمثل ، وهي صورة من صور العدل الاجتماعي ، وبالتالي : فلا بد من نزع الأطر الادارية المتزمتة الجامدة عن المؤسسات التربوية ، والغاء الشروط التعسفية الجائرة في قبولها للطلاب ، وجعل المقياس في ذلك هو القابليات والمؤهلات الشخصية ، دون ترجيح مطلق للتقدير في امتحان ما ، وذلك لأن الامتحان بصورته الراهنة لا يمكن أن يكون مقياسا عادلا لقدرات الطلاب ، أو تعبيرا صادقا عن استعداداتهم الشخصية ، وأن الخبرة المكتسبة عن طريق التحصيل الشخصي أو في نطاق الممارسة الفعلية في مهنة ما ، قد ترجح كثيرا ما يلحق في المدرسة أو المعهد التعليمي • فالنظام التربوي الناجح يركز نشاطه كله على المتربي ، ويمنحه مزيدا من الحرية كلما ازداد نضجا لكي يقرر بنفسه ما يريد أن يتعلمه ، وكيف وأين يمكن أن يتعلمه ؟ حسب ميوله الشخصية ، وقابلياته ودوافعه ، بل لا بد أن يتم ذلك في اطار من المشاركة الفعالة حيث يسهم المتعلمون أنفسهم في النهوض ببعض المسؤوليات التربوية •

هذه العناية بالانسان مرييا ومتربيا تحتم الاهتمام بمعاهد التربية ومراكز اعداد المعلمين اهتماما يعكس خطورة الرسالة التي يضطلع بها المربون ، وهنا تبدو الحاجة ملحة الى انشاء معاهد اسلامية للتربية تعد المربين الاعداد الصالح اللائق بدورهم في الحياة ، ثم متابعة ذلك بالدورات التدريبية والندوات الفكرية اللازمة لهم ، ولتطوير مهنتهم باستمرار •

٦ - العمل على تبسيط العملية التربوية وتيسير اجراءاتها : فمن المميزات التي تجمعت للتربية الاسلامية عبر القرون الاثني عشر الأولى من تاريخها المجيد هي البساطة ، والتيسير ، والخلو من التعقيدات التي تعاني منها نظم التعليم المعاصر • فلم تكن التربية الإسلامية تشترط أكثر من أستاذ مؤمن ، عالم عامل ، ذي خلق ، وطلاب لديهم الامكانية والرغبة في التعلم ، تحكمهم علاقة من التفاهم ، والمحبة ، والثقة ، وخشية

الله ، والشغور بقدسية العملية التربوية ، وحسابها في عداد الأعمال
التعبدية . وكان ذلك أكبر عون على تذليل أية صعاب واجهتها . وعلى
تحقيق الغاية المرجوة منها بأقل جهد وأيسر تكلفة . !!

فلم تكن هناك أسوار بين العلم والمجتمع ، بل كانت فرص التزود
منه تتاح لكل راغب فيه ، دون أية شروط كالسن ، أو الحصول على
مؤهلات سابقة ، أو الظروف الاجتماعية والاقتصادية ، . . . الخ ، ما دام
الأستاذ قد وافق على قبوله لتحقيق العلم على يديه . ولكي نعيد
للعلمية التربوية روحها الإسلامية فلا بد من زيادة مؤسساتها ، وتسهيل
إجراءات الانخراط فيها ، وتمكين الفرد من اختيار ما يلائمه منها حسب
قدراته وامكانياته وميوله ، بحرية كاملة ، وبوسائل متعددة ، في مرونة
ويسر تمكن كل راغب في المعرفة أن ينهل منها ، وأن يترك ذلك كلية
للأستاذ والطالب ، دون تدخل أية سلطة أخرى . اللهم الا اذا كانت أعمالا
إدارية تنظيمية بإرشاد الأستاذ وتوجيهه .

٧ — ازالة الحواجز التقليدية بين مراحل التربية المختلفة : فلم
تكن هناك أية حواجز في النظام الاسلامي بين مراحل التربية المختلفة
فالمتعلم كان له أن يتنقل رأسيا من مستوى الى غيره ، وأفقيا من تخصص
الى آخر حسب رغبته واستعداداته ، وبتوجيه من أستاذه ، وهذه
المرونة كانت تزيد من مجالات الاختيار أمام الطلاب ، ولا تضطر أيًا منهم
الى الانخراط في تخصص لا يتناسب وميوله ، أو الدراسة على يد
أستاذ لا يستسيغ طريقته . أو الفشل والاضطرار الى ترك التعليم
كلية .

وعلى ذلك فلا بد من ازالة الحواجز المصطنعة التي تفصل بين مختلف
أنواع التعليم ومراحله ومستوياته ، وبين التعليم النظامي وغير النظامي ،
وتيسير عملية التربية المرحلية حتى يستفيد منها كل من تضطره ظروفه
الى العمل مبكرا ولا تزال لديه رغبة في مواصلة تعليمه .

كذلك لا بد من توسيع مفهوم التعليم العام بحيث يتيح للطفل فرص
التربية النظرية والتقنية والتطبيقية واليدوية ، والتوفيق بين تكوينه

العقلى والتطبيقي واليدوى ، حتى يمكن اكتشاف مواهبه وتوجيهها
التوجيه الصحيح ، ولابد من تنويع التعليم الخاص وتعدد مجالاته
ومؤسساته ليتمكن من تلبية احتياجات الأفراد والمجتمعات .

وهذا الانفتاح على مختلف مجالات المعرفة فى التربية الاسلامية
يسره فى الماضى أن العلم كان يقصد لذاته ، لا للوظيفة ، ولا للمهنة ،
ولا للكسب المادى المجرى عن القيم والأخلاق ، ولا للافتخار والتباهى
به ، ولا للتسابق على مراكز الصدارة فى المجتمع . فالرسول صلوات الله
وسلامه عليه يقول :

« لا تعلموا العلم لتباهوا به العلماء ، أو لتبصاروا به السفهاء ،
ولا لتحدثوا به فى المجالس فمن فعل ذلك فالنار النار » . وعلى ذلك
كان العلم يقصد رغبة فى المعرفة والحكمة ، وحبا فى الاستزادة منهما ،
وأملا فى القدرة على تعليمها للناس ، وعلى استعمالهما فى عمران الحياة
على الأرض ، وإقامة شريعة الله فيها . ولم يكن يحول دون ذلك أن
يكون الإنسان صاحب مهنة . فأنبيا الله كانوا من أصحاب المهن .
وكان كل منهم يأكل من عمل يده ، وهذا عمر بن الخطاب رضوان الله
تعالى عليه يقول « انى لأرى الرجل فيعجبني ، فأسأل هل له مهنة ؟ فاذا
قيل لا ، سقط من عينى » .

هذا ، وقد كان العديد من المسلمين البالغين يفضلون الترحال فى
طلب العلم ، والبعد عن الوطن والأهل ، تأكيداً لتفرغهم فى تحصيله ،
وتقليلاً لما يمكن أن يصرفهم عنه .

٨ — العمل على جعل التعليم عملية ذاتية حرة غير مقيدة بمناهج
محددة : ولقد كان ذلك من أبرز سمات التربية الاسلامية التى رفضت
تكيل الإنسان (مرياً ومترياً) بأية قيود جامدة من مثل ما يعرف
اليوم باسم المناهج المحددة . فلقد كانت تكتفى بتحديد فلسفتها
المستمدة من عقيدتها وأهدافها العامة التى تتلخص فى تربية الإنسان
الصالح ، وأطر ذلك من سلوك وأخلاق ومعاملات وحقوق وواجبات ،
وتترك العملية التربوية بعد ذلك علاقة مقدسة بين المربى والمتربى ،

تَحْكُمُهَا خَشْيَةُ اللَّهِ وَتَقْوَاهُ ، وَالْإِيمَانُ الْعَمِيقُ بِأَنَّهَا رِسَالَةٌ تُؤَدِّي ، وَصُورَةٌ
مِنْ صُورِ الْقُرْبَى إِلَى اللَّهِ • وَيَكْفِي أَنَّهَا نَبِعتْ مِنَ الْمَسْجِدِ وَارْتَبَطَتْ
دُومًا بِهِ •

وعلى ذلك فقد ظلت العملية التربوية طوال القرون الاثني عشر
الأولى (أو يزيد) من تاريخها المشرق ، تربية فردية حرة بكل ما في
الكلمة من معنى ، لم تتبع أية مناهج محددة ، خاصة في المراحل المتقدمة
منها ، فبينما نجد مناهج التربية اليوم تتباين في أسسها بين تركيز على
الطفل فقط وما يتنازعه من عوامل داخلية (عوامل الوراثة) ، أو خارجية
(مؤثرات البيئة) ، أو كليهما ، أو تركيز على المعلومات وحدها (بين
شاملة واختيارية) ، أو على المجتمع بذاته (بين تحليل واقعي ورؤية
مثالية) ، أو على العمل وحده (كالقيمة الاجتماعية الوحيدة في الحياة) ،
وكلها مفاهيم جزئية ، لا تتناسب مع تكامل الطبيعة الانسانية وشمولها ،
فضلا عن تباين الأفراد ، واختلاف قدراتهم وملكاتهم : مربين
ومترين • فإنا نجد لكل مرب في النظام الاسلامي منهجيته الخاصة ،
وطرائقه في تنفيذها ، وأسلوبه ووسائله التي تتباين بتباين الطالب وقدراته
وملكاته وميوله ، وكامل ظروفه ، بل بتباين مراحل نموه • مما يؤكد
انسانية كل فرد ويعمل على صيانتها •

ومن الغريب أن التربويين في العالمين الرأسمالي الليبرالي ،
والاشتراكي الشيوعي ، قد بدأوا بعد دراسات مستفيضة يفتقون إلى
أهمية هذه المبادئ الاسلامية في التربية : الانسانية والحسرية في نظام
وطاعة ، لا يتسمان بالتعقيد ولا بالخنوع ، وفي بساطة منضبطة
لا تكبلها أثقال القيود المفروضة والمعقدة على كل الأفراد رغما عن
تباينهم ، وفي عدل اجتماعي يتيح لكل فرد - مهما كانت ظروفه ،
وعلى مدى حياته - فرص التعليم والترقي فيه إذا كانت له رغبة
صادقة في ذلك (أنظر فور ومن معه ، ١٩٧٤م) فالصرخة اليوم تتعالى في
العالم كله طلبا لنظام تربوي متكامل ، يتيح فرص التربية المستديمة على
كافة المستويات ابتداء برياض الأطفال (التي يجب التوسع فيها

لتستوعب كل وليد (الى المرحلة الثانوية) التى يجب أن يعاد تنظيمها لتتسم بقدر من المرونة يتلاءم مع كل الطاقات ، وبالتنوع الذى يمكن أن يجعل منها تأهيلا للجامعة والمهنة وللحياة) ، والى التعليم العالى (الذى يجب أن تتعدد آفاقه ومؤسساته من الجامعات الى المعاهد التقنية والفنية العامة والمتخصصة ، الى مراكز البحوث ومعاهده ... الخ ، وأن يفتح أبوابه على مصاريحها لكل راغب فيه وقادر عليه) الى التعليم غير النظامى الذى يهتم باعداد البرامج الخاصة للشباب وتوجيههم عبر وسائل النشاط الاجتماعى والاعلامى المختلفة ويوفر البرامج التربوية التعليمية والتدريبية فى شتى مجالات المعرفة لكل من الموظفين والمهنيين أثناء قيامهم بالعمل ، أو حتى تفريغهم - بعض أو كل الوقت - للدراسة بالتناوب ، (مع احتفاظهم بوظائفهم وبمرتباتهم كاملة) • وبذلك يمكن تحقيق التربية الشاملة المستمرة لكل فرد فى المجتمع ، وامتصاص القوى البشرية العاطلة عن العمل ، وتعليم أفرادها مهارات أو مهن جديدة يطلبها المجتمع • مما يساعدهم على ايجاد فرص عمل مناسبة ، وربما كانت هذه المبررات من الحوافز على انشاء الجامعة المفتوحة التى تستخدم وسائل الاعلام الحديثة فى التربية (خاصة التلفزيون ، وبرامجه المطبوعة) والتى تقبل كل من يثبت الرغبة والقدرة على مواصلة السير فى الدراسة دون تقيد بالسن أو الحصول على شهادات سابقة ، وتمنحه كل الدرجات الجامعية التى يمكن أن يتقدم لها • وليست الجامعة المفتوحة الا صورة عصرية لحلقات العلم التى كانت تعقد فى المساجد منذ السنة الأولى للهجرة (فى المسجد النبوى منذ السنة الأولى من الهجرة ، وبالحرَم المكى منذ عام الفتح ٨ هـ ، وبمسجدي الكوفة والبصرة منذ ١٤ هـ وبالمسجد الأموى بدمشق منذ ٤١ هـ ، وبجامع الزيتونة فى تونس ٧٩ هـ ، وبجامع المنصور فى بغداد منذ ١٥٧ هـ ، وبجامع القرويين فى المغرب منذ ٢٤٥ هـ • وبالجامع الأزهر بالقاهرة منذ ٣٦١ هـ) • ويؤمها من يشاء من الناس دون أية شروط الا الالتزام بأداب الحلقة واذن أستاذها وشيخها ، وما أشبه الجلسة أمام التلفزيون لتلقى العلم عنه بالجلسة

أمام الشيخ للتلقى عنه ، مع فارق الوجود الفعلى للمربي ، وتأثيره الروحي
والنفسى على طلابه ومريديه ، وما أكبره من فارق •

وانطلاقاً من ذلك كله فقد قمت فى ندوة عقدت بجامعة الكويت فى
٣/٥/١٩٧٥م « لتطوير تدريس العلوم بالمرحلة الجامعية الأولى »
بالتحذير من خطر « المناهج المحددة » المبنية على العديد من المقررات
المتنوعة المسترجعة ، وغير المنسجمة ، والتي يقوم الطالب بحفظها من أجل
الامتحان فقط ، الذى أصبح بالنسبة له شيئاً يأتى فى المقام الأول قبل التعلم ،
مما جعل دور التعليم الجامعى يتحول من التكوين العقلى للطلاب وتدريبهم
على التفكير السليم ، الى مجرد ملء ذاكرتهم بأكداش المعلومات التى قد
لا يفهمونها ، بل يستظهنونها للامتحان ، الذى أصبح الوسيلة الرئيسية
لتقويمهم ، وبذلك انحطت عملية التقويم ذاتها الى مجرد قياس قدرة
الطلاب على أداء الامتحانات ، وقدرة ذاكرتهم على الحفظ •

وللتغلب على ذلك قمت بتقديم اقتراح بالعودة بالعملية التربوية
الى أساسها الإسلامى الإنسانى البسيط ، وذلك بتقسيم الطلاب المتقدمين
لأى قسم علمى (مثل قسم الجيولوجيا على سبيل المثال) الى مجموعات
صغيرة بعدد أعضاء هيئة التدريس الموجودين بالقسم ، وحسب اختيار
كل طالب ورغبته ، وفى كل من هذه المجموعات يعمل الطالب من أربعة
الى سبعة أسابيع على الأقل تحت اشراف الأستاذ الذى اختاره ، وبالطريقة
التي يراها الأستاذ مناسبة له ، مستخدماً فى ذلك كل البدائل المتاحة
(المحاضرات ، الندوات ، القراءات الموجهة ، الدراسات المختارة ، العمل
فى المختبرات ، أو فى الحقل ، أو فى الصناعة ... الخ) ، وفى خلال ذلك
تتم عملية تقويم الطالب بصورة مستمرة ، وكجزء من العملية التربوية
ذاتها - وعلى أساس من ذلك التقويم المستمر - قد يسمح للطلاب فى
الاستمرار مع نفس الأستاذ الى دورة أو دورات أخرى ، أو التحول
الى أستاذ آخر •

وبهذه الطريقة يعمل الطالب لمدة تتراوح بين التسعين والمائة
وعشرين أسبوعاً فى المتوسط تحت اشراف أستاذ واحد أو عدد من

الأساتذة ، وفي تخصص واحد أو أكثر من تخصص حسب اختياره ،
علما بأن شرط المدة هذا غير جازم ، ومتروك كلية لتقدير الأستاذ ، وعلى
الطالب بعد ذلك تقديم رسالة مطبوعة في إحدى مجالات التخصص الذي
اختاره ، وأن يجلس لاختبار شفهي شامل قبل منحه الدرجة الجامعية .

هذا النظام يتيح للطلاب التخصص العميق إذا أراد ، والدراسة
العامة على تباين درجات اتساعها حسب ميوله ، كما يمكنه من اكتشاف
مواهبه ومهاراته ويعينه على تنميتها وتطويرها ، وعلى توجيهها الى تقنية
معينة بذاتها ، أو الى اتقان منهجية خاصة ، وهذا في حقيقته هو الهدف
الرئيسي من التربية الجامعية . والنظام المقترح يعطى الحرية لكل من
الأستاذ والطالب ، ويعين على تقدير الفروق الفردية بين الناس وأخذها
في الحسبان ، وعلى التعمق في الدراسة أو تعميمها حسب استعداد كل
فرد وميوله وقدراته ، كما يشجع على المبادرة ، والابداع ، ويساعد
على اكتشاف المواهب الدفينة ، ويغنى عن نظام الامتحانات بصورته
الراهنة المضیعة للوقت والمحطمة للأعصاب ، وغير المنصفة ، كما يشجع
على تقدم البحث العلمی ، ويصون الأخلاقيات الأساسية للتربية ، ويحافظ
على طبيعتها الانسانية النبيلة ، ويعمل على تحقيق رسالتها السامية ،
ويعيد الى الذهن صورة التقاليد الاسلامية الجميلة التي قامت منذ أمد
بعيد ، وأثبتت فاعليتها على مدى من الزمن طويلا ، ثم أقصيت عن
معاهدنا التربوية رغما عنا ، أو ضحينا بها في محاولات لاهثة لتبني نظم
مستوردة غريبة عنا .

وهذا النظام ليس بدعة مستحدثة ، إنما هو مستقى من نظام الأزهر
الشریف ، والذي كان الى عهد قريب يتبع نظاما اسلامية كاملة ، فلقد كان
الطالب فيه هو الذي يختار بنفسه الأستاذ الذي يتلقى العلم على يديه ،
وكان له أن ينتقل من أستاذ الى آخر حسب رغبته ، وأن يتقدم للامتحان
بمحض اختياره ، ومتى رأى نفسه مؤهلا لذلك ، ولم يكن الامتحان هو
الوسيلة الوحيدة لتقييم الطالب ، بل كان رأى أستاذه (الناتج عن معرفة
بحقه به ، واحتكاك وثيق معه) هو الفيصل في ذلك ، وكانت الإجازة

التي يمنحها تحمل اسم الأستاذ أو الأساتذة الذين تلقى عليهم العلم ، ومما لا شك فيه أن نظاما هذا شأنه هو أمثل النظم التربوية وأكثرها انسانية ، بدليل أن تجارب العالم التربوية قد وصلت بعد بحوث عديدة طويلة الى التوصية به والعودة اليه ، وان لم يسموه بتسميته الحقيقية ، ولم يصفوه بأنه النظام الاسلامي في التربية (أنظر فور ومن معه ، ١٩٧٤ ص ٣٠٥ - ص ٣٠٦) . أضف الى ذلك أن طالب العلم آنذاك كان يطلبه حثيثا لذاته ، ويقطع المسافات الشاسعة من أجله ، ولا يبالي بالاعتراب والحرمان من متع الحياة في سبيله ، ولم يكن يلهه عنه أى شغل من شواغل الدنيا ، وكان يعتبره نوعا من عبادة الله والجهاد في سبيله ، وهذا لا يمكن أن يكون في غير الاطار الاسلامي .

وليس معنى ذلك أننا نريد العودة بالعملية التربوية الى ما كانت عليه في الماضي تماما - فذلك مخالف لطبيعة العصر ، وسنن الأيام ، ولكننا نريد التأكيد على عدد من المعاني والقيم التي لازمت العملية التربوية في ماضينا المجيد ، وأثبتت نجاحها وتفوقها ، ونحن في دعوتنا هذه لا نفوتنا التأكيد على الاستفادة بالتجارب الانسانية في ميدان التربية خلال القرن الماضي بصفة خاصة ، فالحكمة ضالة المؤمن ، أنى وجدها فهو أولى الناس بها ، والمعرفة تراث البشرية كلها ، ساهمت كل الأمم والشعوب في اثرائها وتنميتها على مدار السنين ، وتتابع الحضارات . ونحن نعلم أن العملية التربوية أصبحت خاضعة في كثير من جوانبها للمنهج التجريبي ، ولا نجد سببا واحدا يمكن أن يخول دون الاستفادة بكل ما تجمع لدى الإنسان من نتائج في هذا المجال ، ما دام لا يتعارض مع الإسلام ونصوصه وفلسفة التربية الإسلامية وأهدافها ، فسواء اشترط في معلم المرحلة الابتدائية أن يكون مدرس فصل أو مدرس مادة (بمعنى أن يعد اعدادا عاما يجعله قادرا على تدريس كل المواد المناسبة لمرحلة الطفولة المبكرة ، بحيث يختص كل فصل بمدرس واحد يقوم بتدريسه جميع المواد ، أم يعد اعدادا متخصصا في مادة أساسية أو في مجموعة من المواد المتجانسة التي يقوم بتدريسها لعدد من الفصول) ، أو نظم التدريس في تلك المرحلة بمزج هذين الاتجاهين

(حيث يعد المعلم للصفوف الأولى إعدادا عاما ، وللصفوف المتأخرة اعدادا متخصصا) أو بتجميع المدرسين في فرق متعاونة تعمل على التخطيط للعملية التربوية وتنفيذها سواء أكانوا متساويين في المسؤوليات ، أو متدرجين فيها ، أو متناوبين عليها . كل هذه تفاصيل مرهونة بنتائج تجربتها . فإذا كانت ناجحة ، فنحن أولى الناس بها . ولكننا نحذر من خطورة تعريض الصغار للعديد من التجارب التربوية لأن الضرر الذي يمكن أن ينجم عن ذلك قد يكون أكبر من امكانية تلافيه .

٩ — العمل على الفصل بين الجنسين في مراحل التربية المختلفة :

فان حضارة الاسلام في انسانيته ونبيلها وسموها قد قامت على الفصل بين الجنسين اكراما للمرأة ، واعترافا بحقوقها التي تقتضيها طبيعتها ، وصونا لها . وان كان الاختلاط قد فرض علينا وعلى نظمنا التربوية المعاصرة من قبل الاستعمار وأعوانه من أبناء أمتنا الدائرين في فلكه ، المفتونين بحضارته ، فان من واجب التربية الاسلامية التنبيه الى خطر ذلك والعمل على درئه باقامة مؤسسات تربوية لكل من الجنسين منفصلة تمام الانفصال ، والدعوة الى ذلك ما استطاعت اليه سبيلا ، وفي ذلك كتب الأستاذ الدكتور محمد محمد حسين (١٩٦٧) في كتابه « حصوننا مهددة من داخلها ، ص ٢٥٨ » ما نصه : « ... فإذا هذا الاختلاط يصبح حقيقة واقعة بطريق ملتو خفى لم يكدر يتنبه اليه أحد ، بعد أن طالت المدرسة الابتدائية الى ست سنوات يتجاور فيها الذكور والاناث . ومن المعروف أن الاناث في بلدنا يدخلن سن المراهقة في وقت مبكر لا يتجاوز السنة الحادية عشرة في كثير من الأحيان ، بل لقد أصبحنا أمام بعض المدارس المختلطة في مرحلة التعليم الاعدادي ، بعد أن تكشفنا تجربة الاختلاط في جامعاتنا من مآسى لا يستطيع تجاهلها الا مكابر أو مدلس ، وأصبح هذا النظام ضربا من ضروب الالزام لا يستطيع والد أن يفر منه أو يتفاداه ، لأن عليه أن يختار بين أن يبعث بابنه وبابنته الى هذا الوسط وبين أن يحرمهم من التعليم ويحجبهم في ظلمات الجهل ، بل

انه لا يستطيع اختيار الطريق الثانى - على ظلمه وظلامه - لأن قوانين الدولة تجبره على أن يعلم أولاده حتى نهاية هذه المرحلة الأولى على الأقل » •

١٠ - العمل على اقامة مؤسسات تربوية اسلامية شاملة : من المراحل الابتدائية حتى الجامعة بجهود شعبية ، حيث أن الأمل فى استجابة الحكومات لذلك النداء الخير ضعيف ، والتعقيدات المحيطة بها قد لا تمكنها من الخروج مما تورطت فيه • وأول ما يجب الاهتمام به من بين تلك المؤسسات التربوية هو معاهد المعلمين والمعلمات • فهذه اذا ما أقيمت على أسس اسلامية صحيحة خرجت المعلم المسلم والمعلمة المسلمة ، وبهما يمكن إحداث الكثير من التغيير ، وإحياء موات هذه الأمة التى أريد لها أن تقبر وهى حية بأيدي أعدائها ، وأيدي نفر من أبنائها جهلوا عقيدتها وتراثها وضلوا طريقهم فى تلك الحياة •

١١ - العمل على وقف جميع المدارس التبشيرية والنشاط التبشيري فى العالم الاسلامى

وذلك لأن كثيرا من المصائب التى جرت فى العالم الاسلامى سببها المدارس التبشيرية ، فبينما أتباع محمد صلى الله عليه وسلم يؤمنون ببعثة السيد المسيح عليه السلام ، فإن ما يسمون أنفسهم بالمسيحيين لا يعترفون ببعثة سيدنا محمد ، بل قد انحرفوا عن تعاليم السيد المسيح نفسه ، وبينما المسلمون يدعون الناس كلهم الى الله ، فإن مهمة المسيحيين فى العالم الاسلامى هى صرف الناس عن طريق الله لأنهم لا يطمعون فى كسبهم الى داخل أديرتهم وكنائسهم ، ويكفى فى ذلك الإشارة الى ما يحدث فى أندونيسيا والفلبين ، والباكستان ، وأفغانستان ، وإيران ، والعراق ، وسوريا ، والأردن ، ولبنان ، ودول الخليج وفى اليمن ، ومصر والسودان ، والصومال ، والحبشة ... الخ • وتكفى أيضا الإشارة الى أن بالأردن أكثر من مائة وأربعين مدرسة تبشيرية الغالبية العظمى من طلابها (أكثر من ٨٥٪) من المسلمين •

وواجب المسلمين الغيورين على دينهم ، والحريصين على تنشئة
أبنائهم على أسسه وفي هداه ، ألا يكتفوا فقط بإقامة البديل - وهو
نظام تربوي إسلامي شامل - بل لا بد من وقف جميع المدارس التبشيرية
والنشاط التبشيري في العالم الإسلامي •

١٢ - العمل على أن يكون التعليم بمختلف مراحله في الدول
العربية بلغة القرآن الكريم •

ودعم ذلك بحركة ترجمة واسعة لأمّهات الكتب في مختلف مجالات
المعرفة ، على أن يصاحب الترجمة تعليق هامشي مبسط من المترجم على
كل فكر يرمى فيه انحرافا عن النهج الإسلامي الصحيح في النظر إلى
الإنسان والكون والحياة وإلى معنى ألوهية الله ، أما في الدول
الإسلامية غير العربية فلا بد من الاهتمام البالغ بدراسة اللغة العربية في
مختلف مراحل التربية •

١٣ - الاستفادة من مختلف التجارب البشرية في مجال التربية ،
ومن أحدث وسائل التقنية - خاصة في مجالات الاستنساخ والتبليغ -
وأنسب وسائل الأيضاح (خاصة الأفلام والشرائح) ، دون مبالغة
أو اسراف •

١٤ - العمل على الاهتمام بالتدريب العسكري في تربية الذكور ،
وبالتمريض والتدبير المنزلي في تربية الإناث من بداية تمكنهم من ذلك

(ب) في نطاق المجتمع :

لم تكن التربية الإسلامية في يوم من الأيام وقفا على النخبة المتميزة
في المجتمع بالجاه والسلطان والمال ، ولم تكن جماعية قسرية ، تلغى
الوجود الفردي أو تهمله ... ، فالإسلام نزل للناس كافة ، وطالب
الجميع بالإيمان والعلم والعمل والإلتزام بالإخلاق ، وهذا لا يمكن أن

يأتى بدون تربية ، ومن هنا كانت التربية حقاً مشروعاً لكل مولود ، وفريضة على كل مسلم بالغ عاقل ، ومسئولية فى عنق كل متعلم أن يعمل بما علم ، وأن يؤدى زكاة علمه لكل محتاج اليه ، ومن هنا أيضاً وجب القضاء على الأمية فى المجتمع الإسلامى ، بل فى المجتمع الإنسانى الكبير .

والأمية صنفان : أولهما جهل بالقراءة والكتابة ، وهذه بلغت نسبتها فى سنة ١٩٧٠م بين البالغين (أكثر من ١٥ سنة) فى العالم ٣٤ر٢٪ ، وفى دول العالم الإسلامى حوالى ٧٥٪ (فور ومن معه ، ١٩٧٤) .

وثانيهما جهل برسالة الإنسان فى هذه الحياة ، وبمصيره بعثها ، وهذه أخطر من أمية القراءة والكتابة . أخطر قدراً لأن الذى يقع فيها يفقد الجزء الأعظم من إنسانيته ، وأخطر نسبة لأن الغالبية العظمى من الناس اليوم واقعون فى برائتها . ومن واجب التربية الإسلامية محاربة كلتى الأميتين بأسلوب علمى متكامل يخطط له وتتضافر جهود المسلمين فى تنفيذه على المستويين الرسمى والشعبى ، الجماعى والفردى ، وباستراتيجية مبدئية مقترحة على النحو التالى :

١ - تكوين هيئات متخصصة تقوم بهذه المهمة بأسلوب عصرى منهجى سليم ، ودعمها بالقوى البشرية الصالحة اللازمة لذلك ، وبكل احتياجاتها المادية والمعنوية ، وبالوسائل التى تمكنها من تحقيق غاياتها .

٢ - دعوة الأميين للتعليم ، وإيجاد الحوافز الفردية والجماعية اللازمة لذلك ، خاصة وأن الأمية منافية للإسلام ، ولكرامة الإنسان ، ولا يجوز لمسلم أن يبقى أمياً لأن ذلك يحول بينه وبين نعم كثيرة أولها تلاوة كتاب الله الكريم وسنة رسوله المطهرة ، وآخرها الاطلاع على تراث الإنسانية الهائل فى مختلف جوانب المعرفة مما يمكنه من القيام بدوره الحقيقى كخليفة لله فى الأرض ، وبمسئوليته تجاه نفسه ومن يعول ، وتجاه مجتمعه وأمته ، بل وتجاه الإنسانية كلها ، كذلك من الواجب

دعوة الانسانية كلها إلى الاسلام بوصفه آخر الرسالات السماوية وأكملها وأتمها ، خاصة وأن الناس اليوم على اختلاف ألوانهم يتطلعون إلى هذا النور . والدعوة للاسلام يجب أن تكون بأسلوب عصري وحجة منطقية واضحة فالغالبية العظمى من الناس في غير ديار الاسلام لم تقرأ عن الاسلام ، وربما لم تسمع به على الاطلاق ، أو سمعت كلاما محرفا ، ومن واجب المسلمين نقل صورة واضحة عن هذا الدين القيم إلى هؤلاء الناس اعذارا إلى الله ، وتأكيدا على معنى الأخوة الانسانية ، وأملًا في أن تتوقف تلك الحروب الظاهرة والمستترة ، والتي تتبناها حكومات تلك الدول ضد الاسلام .

٣ - دعوة المتعلمين على مختلف مستوياتهم إلى التطوع لمحو الأمية بنوعيتها ، وليبدأ كل منهم بأقرب الناس إليه ، أهلا له ، أو خدما في بيته ، أو عمالا يعملون تحت إشرافه ، ويمكن الاستفادة في ذلك بأئمة المساجد ووعاظها ، وبموظفي الدولة في أوقات فراغهم ، وبالمحاليين إلى التقاعد ممن تعينهم ظروفهم الصحية على ذلك ، وبالطلاب خلال العطلات المدرسية ، وبوسائل الاعلام المتطورة مثل التليفزيون ، وبمباني المدارس والمعاهد التعليمية المختلفة في غير أوقات الدراسة ، ويمكن أيضا الاستفادة بالأعداد الهائلة من المسلمين الذين يتواجدون في بلاد غير اسلامية ويشمل الأعداد الكبيرة من غير المسلمين المتواجدين في ديار الاسلام في هذا البرنامج ، والتأكيد على أنها مهمة من أنبل المهمات التي يمكن أن يقوم بها المسلم ، ومن أجمل ما يمكن أن يتقرب به المرء إلى الله . !

٤ - العمل على إحياء رسالة المسجد من جديد ليعود كما كان حتى الماضي القريب : مكانا للعبادة ، ومدرسة لتعليم الناس القراءة والكتابة وتحفيظهم كتاب الله ، وجامعة شعبية مفتوحة تعقد فيها حلقات العلم الذي يحضرها الناس بدون أية شروط ، وتدار فيها المحاضرات والمناقشات العلمية على مختلف المستويات ، ومجلسا للشورى ، ومنتدى اسلاميا ، ودارا للقضاء ، ومركزا تنطلق منه الجيوش ، ودارا لضيافة الوفود ، ومركزا اعلاميا للاسلام ، وملجأ لمن لا ملجأ له ، والمسجد بهذه

الصورة يربط أفراد المجتمع الواحد برباط وثيق ، ويؤكد على معنى الأخوة بين الناس ، وعلى ضرورة التعاون والتكامل بينهم . ولو أن كل مسجد في الأرض اليوم قام بمسئوليته تلك لانقشعت غيوم الأمية عن العالم الاسلامي بل عن العالم كله في زمن قصير جدا .

وفي هذا الصدد تجدر الإشارة الى ضرورة إعادة النظر في تخطيط بناء مثل هذا المسجد الجامع تخطيطا هندسيا يمكنه من القيام برسائله الشاملة ، فيحتوى على قاعة للصلاة ومركز لتحفيظ القرآن ، ومكتبة عامة ، وقاعة للمحاضرات العلمية والفكرية والاحتفالات الدينية والاجتماعية ، وكذلك يحتوى على مركز للاسعاف ومستوصف وصيدلية ، وكل ما يمكن أن يعين على تحقيق رسالة المسجد الكلية .

وتجدر الإشارة كذلك الى ضرورة التأسي بسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وما اتبعه في بناء مسجده من البساطة والبعد عن البذخ والترف والاسراف ، وهذه الأمور التي تلاحظ في كثير من المساجد التي أنشئت وتنشأ في العالم الاسلامي اليوم من المبالغات التي يرفضها الاسلام . فلو أن الملايين التي تنفق على زخرفة المساجد والمبالغة في فخامة مبانيها توجه الى استكمال رسالة المسجد على النحو الذي أسلفناه ما بقيت أمية في العالم الاسلامي . فنظام « الكتاتيب » الذي لعب دورا رئيسيا في القضاء على الأمية ونشر العلم في مختلف ربوع العالم الاسلامي قد بدأ أساسا من المسجد ثم انتقل الى غرفة مجاورة له توفيرا لمكان العبادة وحتى لا يكون في عملية التعليم والتعلم ازعاجا للمصلين ، وتطور الأمر بعد ذلك في مراحل متعددة حتى أن مسجد سليمان القانوني في تركيا كان يضم الى ساحته عشر مؤسسات منها كليات أربع ، ومدارس ، ومستشفى ، ووحدات سكنية لطلاب العلم ، وكان المسجد يتحول في فترات ما بين الصلاة الى قاعة حقيقية للدرس والمحاضرات ، وكذلك كان مسجد محمد الفاتح الذي ضم على جانبيه كليات ، ومضافة ، ومستشفى ، ومركزا لتوزيع الطعام ، وبالمثل كانت مدينة البعوث الاسلامية الى جانب الجامع الأزهر .

٥ - الدعوة الى تخصيص جزء من زكاة الأموال للأشفاق على مراكز التربية الاسلامية (من مدارس ومعاهد وجامعات) فهذا هو أحد فقهاء المسلمين المرموقين في زماننا (القرضاوى ١٣٨٩هـ / ١٩٦٩م ص ٦٦٨) يكتب في تفصيل المصرف السادس من مصارف الزكاة ، والمعبر عنه بالنص القرآنى « وفي سبيل الله » ما يدعم ذلك ويؤيده وتقطتف من ذلك قوله : « ... لهذا نرى أن توجيه هذا المصرف الى الجهاد الثقافى والتربوى والاعلامى أولى فى عصرنا بشرط أن يكون جهادا اسلاميا خالصا ، واسلاميا صحيحا ، فلا يكون مشوبا بلوثات القومية والوطنية ، ولا يكون اسلاما مطعما بعناصر غربية أو شرقية ، يقصد بها خدمة مذهب أو نظام أو بلد أو طبقة أو شخص . فلا بد إذن أن يكون الإسلام هو الأساس والمصدر ، وهو الغاية والوجهة ، وهو القائد والموجه ، حتى تستحق تلك المؤسسات شرف الانتساب الى الله ، ويعد العمل فيها ولها جهادا فى سبيل الله » .

٦ - الدعوة الى اعادة نظام الوقف الاسلامى بصفة عامة ، والوقف على التربية الاسلامية ومعاهدها بصفة خاصة ، ومطالبة الحكومات التى حلت هذا النظام واستولت على أمواله بالتعويض عنها ، ومطالبة كل قادر بدعمه ، ثم التخطيط لحسن ادارة هذه الأموال ، واستخدامها لتحقيق الأغراض التى توقف من أجلها .

٧ - العمل على اقامة المجتمع الاسلامى بكل سماته ، لأنه مجتمع بطبيعته يحارب الأمية بنوعيتها ، ويعمل على نشر العلم ، وعلى الترقى بالانسانية فى مدارج الكمال البشرى ، فإن مجتمعا يحكمه القرآن الكريم لا يمكن أن تبقى فيه أمية ، فضلا عن جهالة . فمن واجبات المسلم قراءة القرآن وتفهم آياته ، والتعرف على تشريعاته وأحكامه ، وهذا لا يمكن أن يتأتى الا بقدر من المعرفة يمكنه من ذلك ، وعليه لم يكن مستغربا (كما سبق أن أشرنا) أن تنتشر مراكز التعليم الابتدائى (الكتاتيب) والعالى (المدارس ودور العلم والجامعات) فى مختلف أرجاء العالم الاسلامى على هيئة نظام تعليمى حر يعتمد على تكافل أفراد

المجتمع الواحد ، أو على التطوع أو على الأوقاف ، أو على العون المادي من ذوى الثراء ، ولم يكن من المستغرب أيضا أن يقوم العديد من ميسورى المسلمين باقتطاع أجزاء من ممتلكاتهم ووقفها على التعليم أو على الدعوة الاسلامية .

وفى اقامة المجتمع الاسلامى تحقيق للنموذج الذى يحتاج الناس الى رؤيته واقعا حيا بينهم ، يمكن أن يقتدوا به ، ويقتفوا أثره .

اساليب التربية الاسلامية :

اذا كانت فلسفة التربية الاسلامية تتميز بالشمول والتكامل والتوحيد والتسامى ، فان أساليبها تتميز كذلك بالتعدد والتنوع فى شمول معجز ، وتكامل دقيق ، وتوازن محكم ، وإيجابية سوية ، ومثالية واقعية .

وقد يتخيل البعض أن فى الدعوة الى العودة بالتربية الى منهجها الاسلامى يستلزم انفلاقا عن أساليب التربية الأخرى ، أو عودة الى الأساليب البدائية فى التربية ، وإهمال منجزات الانسان فى هذا المجال الحيوى عبر القرون الطويلة الماضية . وهذا وهم خاطئ : لأن الإسلام يعتبر الحكمة ضالة المؤمن ، ويؤكد على أنه أنى وجدها فهو أولى الناس بها ، ويرى أن المعرفة الصحيحة المؤكدة هى تراث الانسانية كلها ، وصورة من صور الحق التى تجب صيافته والمحافظة عليه ، فكل تقدم يتحقق فى أساليب التربية ووسائلها : نحن أولى الناس بالمسارعة إليه والأخذ به بعد تحقيقه ودراسته ، والتأكد من موافقته لفلسفة التربية الاسلامية وأهدافها ،

وهذا اللقاء العرضى فى الأسلوب بين التربية الاسلامية وغيرها من نظم التربية ، هو لقاء فى جزئية من الحق ، وفى بعض جوانبه ، ولكن تبقى التربية الاسلامية تربية ربانية متميزة ، وفى ذلك كتب قطب (١٩٧٤ ، ص ١٣) ما نصه : « ... أن البشرية لم تعرف فى تاريخها كله نظاما بهذه السعة وهذا الشمول وهذه الإحاطة ، بحيث لا يند عنه شيء فى حياة

الإنسان ، ولا لحظة من حياته لا تقع في محيط منهاجه الشامل الدقيق ، وتظل له ميزة أخرى فوق ذلك : هي أن هذه السبعة وهذه الاحاطة لا تخرجان به عن وحدة الهدف ووحدة الطريق ، فهو ليس طرائق قددا كل منها يؤدي الى غاية منفصلة ويجذب النفس في اتجاه ، فتتمزق بين الشد والجذب ، وانما هو طريق واحد وغاية واحدة تجمع كل شتات النفس وتوحيدها ، فتستقيم على النهج ، وتتجمع على الغاية ، فتلتقي النفس من داخلها في سلام بعضها مع بعض ، وفي سلام من خارجها مع الكون والناس والحياة » . وفي ذلك أيضا كتب الجمالي (١٩٦٧ ، ص ١٤٨) موجزا رأيه في التربية القرآنية ، بعد تفصيل مسهب بقوله : « ... أنى لا أعرف كتابا في التربية قديما كان أو حديثا ، يحوى الثروة التربوية العظيمة في الأهداف والمحتويات والأساليب مقرونة بالتسامي والواقعية والشمول والاتزان كالقرآن الكريم » .

ومن أساليب التربية في القرآن الكريم أسلوب التربية بالتلقين والمحاكاة ، وباتباع القدوة ، وبالتعليم ، والممارسة والتعود ، وبالعمل ، وبالتكرار ، وباستعمال المنطق والمحاكمة العقلية ، وبالتأثير في النفس وإثارة العواطف ، وأسلوب القصة والبيان المعجز ، والحوار ، والمساءلة ، والوعظ وضرب الحكمة ، واستعراض الأمثال ، وتقدير الواقع ، واستخلاص العبرة ، واستخدام الحس في التأمل والتفكير والتدبر ، وشفافية الروح ، والتواصي بالحق والتواصي بالصبر ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأسلوب الترغيب والترهيب ، والبشارة والنذير ، والتعذير والقصاص ، وقبول التوبة والغفران ، ... الخ .

تلك هي بعض أساليب التربية الإسلامية كما وردت في القرآن الكريم ، وهي تتعاون كلها في تحقيق هدف واحد هو تربية الإنسان الصالح ، ويستخدم منها ما يتلاءم مع طبيعة كل إنسان ، وامكانياته ، وتهيؤه النفس ، وسنه ، وقدرة ادراكه ، الا أن التعلم بالعمل يبقى من أهم أساليب تلك التربية الربانية ، فتكوين الأخلاق الفاضلة لا يتم بالوعظ

فقط ، ولا بالحفظ وحده ، ولا بالافتناع العقلى بمفرده ، بل يحتاج الى ممارسة فعلية يقوم بها الانسان حتى يتعود هذه الأخلاق الفاضلة فتصبح جزءا من كيانه ، وطبيعة فيه ، لا يطمئن قلبه بغيرها ، ولا يرتاح ضميره اذا خرج عليها . فتعود المرء على النظام والأمانة ، وضبط النفس ، والتعاون مع غيره ، والتسامح مع المخالفين له ، والتضحية في سبيل المجموع يتطلب مرانا وممارسة من الانسان طوال حياته حتى تتأصل تلك الخصال فيه ، وهذا هو أسلوب الاسلام في التربية بالعبادة ، فالنطق بالشهادتين ، واقامة الصلاة على ميعادها ، وايتاء الزكاة كاملة في وقتها ، وصوم رمضان وحج البيت لمن استطاع اليه سبيلا ، والجهاد في سبيل الله ، في طهارة مادية ومعنوية معا هي بعض أساليب تلك التربية الاسلامية القرآنية .

هذا موجز لأساليب التربية في الاسلام ، ولو اتجه المتخصصون الى استعراض آيات القرآن الكريم وفهمها لخلصوا منها الى صور عديدة مشرقة لأساليب هذا النهج الربانى في التربية الذى يتميز باتزان محكم دقيق ، وكيف لا وهو من الله خالق الانسان ومبدع الوجود !!

فالاسلام حينما يهتم بتربية الجسد بالغذاء فهو يعطيه اياه بالقدر المضبوط الذى لا يضعفه ولا يتخمه ، وهو حين يهتم بالرياضة يحددها فى الاطار الذى لا يلهيه ، ولا يغويه ولا يفسده ، بالتربية العسكرية يجعله يقبل عليها حماية لدينه ، لا استعلاء على الناس أو تجبرا فى الأرض ، وهو حينما يؤكد على القيام بالعبادات يؤكد على ذلك بالقدر اللازم لصالح أمره ، دون رهبانية وانقطاع عن الحياة أو انشغال بأمور الدنيا عن الآخرة ، وحينما يهتم بالعمل الجاد الصالح يؤكد عليه دون مبالغة مهلكة ، أو كسل مفسد ، وحين يهتم بالجسد اذا مرض يوصى بالعلاج الناجح ، دون مبالغة أو تفريط .

والتربية الإسلامية اذ تهتم بالجوانب الروحية فى الانسان ، وتربيتها بالعبادة فأنها تربطه فى ذلك بخالقه ، فلا يترك لنفسه فى الشدة حتى تقضى عليه ، لأن له ربا يلجأ اليه ، ولا يطغيه الرخاء فيتجبر

في الأرض ، لأنه يعلم أن الخير كله من الله وأن مرده إليه ، وعوده التسليم في القضاء ، لأنه لا راد له ، ولا فائدة من الانهيار أمامه ، وتنشئه على حب الحياة ، على أنها مضمار التسابق في الكمال الإنساني بالاختيار والوعي ، لا دار جشع وطمع وحب في السيطرة والتملك بحق وبغير حق ، وعلى أنها دار فناء ومزرعة لدار أخرى خالدة ، وتنشئه كذلك على حب الناس وخفض الجناح لهم ، والعمل على تفهمهم • لأن الخلق عيال الله ، وأحبهم إليه أنفعهم لعياله ، وفي نفس الوقت تعوده الاستعلاء على كل جبار في الأرض لأنه لا ألوهية لغير الله ، ولا سلطان لأحد سواه • هو مالك الأنفس ، لا يأخذها غيره ، وواهب الأرزاق لا ييسطها الا هو !!

ومن أساليب التربية الإسلامية للنفس البشرية تعويدها على النظام والطاعة وعلى العبادة المنتظمة وتأديبها بالوعظ والارشاد ، وبمحاسبة النفس يوما بيوم ، وباستنفار الطاقات المختلفة فيها وأثارة عواطفها بالترغيب والترهيب وبالرجاء والخوف ، وبالحب والكره ، وبالواقع والخيال ، وبالمحسوس المدرك والغيب المنبأ عنه وبالمادية والمعنوية ، وبالفردية والجماعية ، وبالالتزام والتطوع ، وبقبول التوبة والغفران •

وسائل التربية الإسلامية :

تتعدد وسائل التربية الإسلامية بتعدد أساليبها ، فهي تستخدم كل وسيلة تمكنها من غرس الايمان في النفوس البشرية وتكوين عاطفة قوية دافعة الى السلوك بموجبه وذلك باتباع القدوة الحسنة ، وباستخدام الحكمة والموعظة ، وبالتعود على العبادات ، وبالاقتناع العقلي وبيان حاجة الانسان دوما الى الله ورعايته ، وبالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وبحسن توجيه الطاقات البشرية وملئ الفراغ في حياتها بالأعمال البناءة ، وبسرد الأحداث والعبر ، وبالتعذير والعقوبة والقصاص ، وبالعلم في مختلف ميادين خاصة القرآن الكريم وما به من اعجاز بياني وتشريعي وتربوي وعلمي وتاريخي ، مما يؤكد على أنه لا يمكن أن يكون الا من صنع الله ، وكذلك استخدام نتائج العلوم الحديثة في تأكيد

حاجة الإنسان والكون إلى خالق عظيم مغاير في صفاته وأحواله لهما ، وعلى حكمته وعلمه استنتاجا من بديع صنعه ، وعلى رعايته لهذا الكون بما فيه ومن فيه ، وعلى حاجة الجميع الى تلك الرعاية في كل لحظة من لحظات الوجود ، وقبل ذلك وبعده ، فإن من وسائل التربية الإسلامية وصل الناس بالله ، وإزالة العوائق التي يمكن أن تحول دون ذلك ، بالدعوة المستمرة الى طريقه بالحكمة والموعظة الحسنة ، سيرا على درب الأنبياء واقتداء بهم ، والعمل على تطهير المجتمعات الانسانية من كل ما يمكن أن يحول دون ذلك .

ومن وسائل التربية الإسلامية للعقل الإنساني : تربيته على طريقة الاستدلال باستخدام المنطق والمحاكمة العقلية ، وعلى المنهج العلمي المبني على الملاحظة والاستنتاج أو التجربة والملاحظة والاستنتاج ، واستخدام ذلك في التعرف على نوااميس الكون وتسخيرها في عمران الحياة على الأرض وازدهارها .

والتربية الإسلامية في ذلك لا تترك الإنسان لحدود فكره وحسه فقط بل تعطيه قدرا من المعرفة بالغيب يعينه على فهم رسالته في الحياة ومعرفة مصيره بعدها ، وهذا القدر من العلوم الغيبية محدود بما يستطيع الإنسان تحمله ، وبواسطته يتمكن الإنسان من إقامة شريعة الله في الأرض والتي تعلمه حقوقه وواجباته في تفصيل واعجاز .

خاتمة

تتلخص أزمة التعليم المعاصر في تزايد الأمية بنوعيتها : أمية الجهل بالقراءة والكتابة ، وأمية الجهل برسالة الإنسان في هذه الحياة ، وكلتا الأمتين أخذ في الازدياد بين الناس وسط عصر تميز بانفجار حقيقي في المعرفة . فالأولى يتزايد فيها مجموع عدد الأميين البالغين في العالم (٧٨٣ مليون نسمة في سنة ١٩٧٠ ، بنسبة ٣٤ر٢٪ من مجموع تعداد العالم) وذلك نظرا للانفجار السكاني وللأزمات الاقتصادية التي تحول

دون مسايرة التوسع في التعليم للزيادة السكانية (خاصة في الدول النامية) ، والثانية تكاد تجرف العالم كله نظرا لتصفية نظم التعليم الديني في العالم بصفة عامة ، وفي العالم الاسلامي بصفة خاصة ، واحلالها بنظم تعليمية علمانية لا دينية ، أصبحت تدور بالعملية التربوية وبالمعارف الانسانية كلها في اطار مادي صرف ، وبذلك تأتي جزئية ، قاصرة ، منقوصة ، لا يمكنها أن تقوم بدورها التربوي أو التعليمي على الوجه الأكمل . وقد زاد هذه العلمانية تعمقا عملية الفصل المتعمدة بين التعليم الديني وغيره (في الدول التي بقي لها شيء من التعليم الديني) خاصة في دول العالم الاسلامي ، والتضييق على المعاهد الاسلامية حتى تم حصر نشاطها في دور تقليدي يتلخص في المحافظة على التراث ، ونقله من جيل إلى جيل ، وذلك درءا لتيار الفكر الإلحادي الوافد من الشرق ومن الغرب ، والذي تغلغل في مختلف مجالات المعرفة الانسانية ، وأدى الى صياغتها صياغة مادية بحتة ، تنكر أو تتجاهل الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، حتى في المجتمعات التي يؤمن أفرادها بذلك . ثم وقوف المسلمين - و في مقدمتهم رجال التربية - موقف المستسلم لتلك النظم التعليمية اللادينية السائدة ، وباختصار شديد : فإن أزمة التعليم المعاصر تتجسد في غياب المنهج الإسلامي للتربية ، وفي غيابه من الدول الإسلامية بصفة خاصة ، والتي كان في امكانها أن تقدم للعالم النموذج التطبيقي في كيف تكون التربية .

وتتلخص العيوب الرئيسية لنظم التربية المعاصرة فيما يلي :

أولا : أن فلسفتها لا تقوم على أساس من وحدانية الله والايمان به وبملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، بل تعتمد على فلسفات وضعية انحرفت بالانسان عن المنهج الرباني وعن الصراط المستقيم .

ثانيا : أنها تقوم على أساس نظم تقليدية ، وقوالب جامدة ، تفرض على الطلاب فرضا في أطر زمانية ومكانية محددة ، تحرم العملية التربوية من الاستمرارية والشمول .

ثالثا : اقتصار هذه النظم (بحكم طبيعة الفلسفات الوضعية التي تقوم عليها) على الجوانب المادية فقط في الانسان ، مما ساعد على نمو هذه الجوانب وضمور الجوانب الأخرى ، وبالتالي خروج الانسان عن اطار انسانيته المتسمة بتوازن محكم بين مادة وروح .

رابعا : سيطرة المنهج المادى على الفكر التربوى المعاصر جعل المعرفة معزولة عن الحكمة وأدى الى ضياع الجانب الأخلاقى والدينى ، وبضياعه انحسر دور التربية في نقل المعلومات والتدريب على قدر من المهارات ، وقد أفرز ذلك النوع من التعليم إنسانا ماهرا غير ملتزم بالأخلاق كان من أبرز أسباب الأزمات العالمية الراهنة .

خامسا : افتقار المربين أنفسهم للنظرة السوية الى الانسان والكون والحياة ولمعنى ألوهية الله ، مما أدى الى فقدهم لدورهم كقدوة حسنة يقتدى بها الطلاب ويتمثلون سلوكها ، وبذلك افتقرت العملية التربوية الى أحد عناصرها الأساسية .

سادسا : فقدان الرغبة الحقيقية في التعلم نظرا لضياع الجانب الدينى والأخلاقى ، وللقدوة الحسنة مما حدد هدف الطلاب في الحصول على المؤهل لاستخدامه كوسيلة في الوصول الى وضع اجتماعى ومالى أفضل ، بينما الأصل في التعليم أنه ضرورة من ضرورات الوجود الانسانى وليس وسيلة للاستعلاء الاجتماعى .

سابعا : افتقارها الى الجوانب الانسانية كالعلاقة النبيلة بين الطالب والأستاذ . وبينه وبين زملائه مما أدى الى تدهور الحياة التعليمية تدهورا ملحوظا ، ومن مظاهر ذلك التدهور انصراف الطلاب عن التعليم وانشغالهم بالعديد من حركات الرفض السلبية التي أخذت تجتاح المجتمعات المعاصرة كلها . ومن مظاهره أيضا تدهور النظام التربوى ذاته ، فالقبول مبنى على التمييز بين الناس ، ومناهج التعليم محدودة جامدة تقتل روح البحث والاستقصاء والابداع وتشل من حرية كل من الطالب والأستاذ ، ونظام الامتحانات نظام موروث من القرون الوسطى

وقد أثبت قصوره في قياس قدرات الطلاب وتقييم مستوياتهم ، وأدى الى فشل الكثيرين منهم •

ثامنا : هذه النظم التربوية قامت على الفصل بين المعارف ، وتضييق الاختصاصات الى درجة جعلتها (بصورتها الراهنة) لا يمكن أن تتدخل في القضايا الكلية لمجتمعاتها مثل قضايا الحرب والظلم والاستعمار والاضطهاد العنصرى ، ومشاكل الجهل والجوع والحرمان ، والقلق ، والآلام ، وأخطار التلوث ، وتناقص المواد الغذائية والموارد الطبيعية ، واستعباد الآلة للانسان ، والتحلل الأخلاقى والبعد عن الدين ، وهذه قضايا لا يمكن للمجتمع أن يعيش دون أن يهتم بها ويصل الى وسائل حلها ، واقصاء التربية المعاصرة عن مثل هذه القضايا الكلية (مهما كانت الأعذار) سيجعلها دائما في معزل عن مشاكل المجتمع وقضاياها ، وهذا - في حد ذاته - اهدار لقيمة العلم ولدور المتعلمين ، كما أنه يهدد وحدة الجنس البشرى ومستقبله •

تاسعا : أن هذه المناهج التربوية الوضعية القاصرة (سواء أكانت في العالم الليبرالى أو الشيوعى) قد سيطرت على الفكر التربوى في العالم بحكم سيطرة دولها (الكتلتين الكبيرتين) وقد انتقلت عدوى ذلك الى البلاد الإسلامية ، وغیرها من دول العالم الثالث مما أفسد مناهج التربية فيها لأنها تتنافى مع عقائدها وفكرها وتراثها ، ومع احتياجاتها وامكانياتها المادية ، مما يؤدي غالبا الى انقصاص في شخصية متعلميها ، وضعف لمردودها ، وبطالة بين المتعلمين وعواقب ذلك النفسية والاجتماعية والاقتصادية الوخيمة ، وهى من الأمور التى تهدد المجتمعات الانسانية بالانهيار •

هذه بعض نقائص النظم التربوية المعاصرة التى تقف من وراء أزمة التعليم المعاصر ، وهذه لن تحلها الاصلاحات الجزئية من قبيل الدعوة الى جعلها تربية مستمرة ، حرة ، مفتوحة للجميع ، ونزع الطابع الجامد عنها ، أو القضاء على التمييز بين مراحلها (الابتدائى ، المتوسط ،

الثانوى ، والعالى) ، وعقد الصلات بين التعليم والمجتمع ، أو الاهتمام بالتربية قبل المدرسة ، أو جعل التعليم شاملا لا يفصل بين تعليم عام وتقنى ، أو ربطه بالعمل ، أو استخدام التقنيات الحديثة بين وسائله .
فهذه كلها أمور جزئية لا تستطيع حل مشاكل التربية التى تعتبر من أعقد العمليات الانسانية وأخطرها ، ولذلك فالعلاج لابد أن يكون علاجاً كلياً شاملاً ، وهذا العلاج الكلى الشامل لا يمكن أن يكون من وضع بشر ، لأن البشر محكومون بحدود قدراتهم ، وبقصور امكانياتهم ، ومن ثم فالعلاج لا يمكن أن يكون موجوداً إلا فى رسالة من السماء الى الأرض . والرسالة السماوية الوحيدة الموجودة بين أيدي الناس ، والم محفوظة بنفس اللغة التى نزلت بها دون تحريف أو تغيير أو تبديل : هى الإسلام كما يعلمه لنا القرآن الكريم . والتربية القرآنية هى قمة النظم التربوية قاطبة لأنها تربية الله الذى خلق ، والذى هو أدرى بطبيعة خلأقه وبأفضل الوسائل لتربيتهم .

وتتلخص فلسفة التربية الاسلامية فى الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وبالقدر خيره وشره ، والالتزام بالعمل الصالح ، والتعاون عليه ، والتعرف على الحق والتواصى به ، وبناء الانسان بناءً متكاملًا (يقوم على تأديب النفس ، وتضفية الروح ، وتثقيف العقل ، وتقوية الجسد) حتى يصل الى الكمال الانسانى المتسامى باستمرار ، وصولاً اختيارياً واعياً ، فى اطار من القيم الربانية ، والأخلاق القرآنية التى ينشأ من الصغر عليها ، ويعود على التعامل بها حتى تصبح جزءاً لا يتجزأ من كيانه .

والتربية الاسلامية تعتبر العلم النافع مكملًا للإنسانية الانسان ، ومعيناً له على القيام بخلافة الله فى الأرض ، ومن ثم تجعل لكل مولود حقاً طبعياً فى التربية والتعليم ، وتعتبر طلب العلم فريضة على كل مسلم . وتأخذ التربية بشمولها للجوانب الجسدية والعقلية والنفسية والروحية فى الانسان ، وتعمل على تعهد كل هذه الجوانب والنمو بها فى عدل وتوازن ، وهى تعتبر الخير أضيلاً فى الانسان ، ومن ثم فمن واجبها

المحافظة على فطرته السوية وتنميتها على ذلك الخير حتى تنطبع به ، وقمة
الخير في الانسان : هي العبودية لله وحده بلا شريك • لأنها تجسيد
لمعنى التكريم الذي كرمه به الله • والتربية الإسلامية تعتبر حب الخير
وحب الحق وحب الجمال من القيم الأصيلة في النفس البشرية ، وأن من
واجب التربية المحافظة على تلك القيم وتنميتها ، وهي تعتبر التربية
عملية مستمرة مواكبة لرحلة الحياة من المهد الى اللحد • بل تمتد بها
إلى ما قبل المهد وذلك ببناء المجتمع الصالح المتعلم المستنير الذي
يقنن لحسن اختيار الوالدين في اطار من الشرعية التي وضعها الله ،
اعدادا لمقدم الجنين الصالح ، ثم للعلاقة العائلية المستقرة ، وحقوق
الفرد (طفلا ، وشابا ، ورجلا ، وكهلا) وواجباته تجاه أهله ومجتمعه وقومه ،
بل تجاه الانسانية كلها • وهي من القضايا التي تهتم بها التربية
الإسلامية لأنها في أساسها تربية انسانية ، غير محدودة بحدود اقليمية
ضيقة ، وهي تربية تتحقق فيها المساواة بين الناس على اختلاف ألوانهم
والسنتهم وأجناسهم ، وبين الذكر والأنثى ، وهي تأخذ في الحسبان
تباين الأفراد في قدراتهم وملكاتهم ومواهبهم واستعداداتهم ، فتقوم على
أساس من الحرية الفردية الحرة غير المقيدة بأغلال النظم العلمانية ، ينهل
منها الطالب بغير قيود مسبقة ، ويتحرك فيها حركة أفقية ورأسية حسب
ميوله وقدراته وبمشورة أستاذه ، وحسب ظروف حياته وعمله ، بل تيسر
له خارج نطاق المعاهد التربوية بصور شتى (المسجد ، الندوات ،
المحاضرات ، الاعلام ، البرامج التدريبية والتعليمية المختلفة ، ... الخ) ،
كما تدعو الى المشاركة الفعلية من جانب الطالب ، الذي يعود على التعلم
الذاتي ، ولا يعتمد على التلقين الحرفي •

والتربية الإسلامية اذ تحسن اختيار المربين وتشرط فيهم شروطا
عالية ، فانها تهتم بهم اهتماما بالغا وتعمل على أن توفيهم حقهم وقدرهم ،
فهم القدوة الحسنة ، والنموذج الذي يقتدى به ، وذلك انطلاقا من رؤيتها:
أن العلم بدون عمل صالح : علم ناقص •

ومن سمات الشمول في التربية الاسلامية شمول مصادر المعرفة فيها، فهي لا تقصر ذلك على العلم البشرى المكتسب وتراث الانسانية المتراكم فيه ، بكل حسناته وأخطائه ، ومزاياه وعيوبه ، ولكنها تجعل بجانبه معيارا ربانيا هو الوحي السماوى المنزل الذى اكتمل في القرآن الكريم وهو المصدر الرئيسى للتربية الإسلامية ، وتأتى بعده السنة النبوية المطهرة ، أما في بقية الأمور فالإنسان مأمور باستخدام حواسه وعقله في عملية من الكشف المستمرة وتحكيم العقل والاستدلال بالبرهان المنطقى ورفض التقليد الأعمى ، والجمود على المفاهيم الخاطئة .

وحتى هذه المعارف الكونية (في التربية الاسلامية) ليست معزولة عن الحكمة ، ولا مجردة من الايمان ، فاذا كان العلم التجريبي وتطبيقاته في مجال التقنية علما بالمادة وصفاتها وقوانينها ، ومحاولة لتسخيرها ، وعلما بالكون وسننه ، فإن الايمان معرفة بالله خالق المادة ، ومؤسس قوانينها . ومبدع الكون ، وواضع نواميسه ، وخالق الإنسان ، ومستخلفه في الأرض ، وواهبه تلك القوى التى تعينه على تسخير الكون وسننه من أجل القيام بواجبات الخلافة ، كلاهما علم لا غنى للإنسان عنه .

وفوق ذلك كله فالتربية الاسلامية تنطلق من التصور الاسلامى الصحيح للإنسان والكون والحياة ولمعنى ألوهية الله ، ومن ثم فهي تعمل على تنشئة الانسان الصالح الذى يدرك حقيقة دوره في الحياة .

من ذلك يتضح أن علاج أزمة التعليم في العالم اليوم (بأبعادها المادية والمعنوية) هو في قيام التربية الاسلامية الشاملة واقعا حيا بين الناس ، ونموذجا يقتدى به ويهتدى بهديه . ولما كان ذلك غير محقق اليوم ، باستثناء بعض البادرات الطيبة التى بدأت تنشط بصورة محدودة في أماكن متناثرة من العالم الاسلامى ، فقد خلص البحث الى اقتراح خطوط عريضة لما يجب أن تكون عليه استراتيجية التربية الاسلامية اليوم . أسأل الله العلى القدير أن ينفع بها ، وأن يهيئ لها أذنا صاغية تستمع اليها .

والله الموفق وبه نستعين .

قائمة ببعض المراجع المختارة

أولا : المراجع العربية

- ابن عاشور ، محمد الطاهر (١٩٦٥) : أليس الصبح بقريب :
٢٦٧ صفحة ، الشركة التونسية للتوزيع (تونس) •
- أمين ، مصطفى (١٩٢٥) : تاريخ التربية • مطبعة المعارف
(القاهرة) •
- الأهواني ، أحمد فؤاد (١٩٦٨) : التربية في الاسلام ، ٣٨٠ صفحة •
دار المعارف بمصر (القاهرة) •
- البوطي ، محمد سعيد رمضان (١٩٦١ م) : تجربة التربية الاسلامية
في ميزان البحث : ١٣٢ صفحة • المكتبة الأموية (دمشق) •
- الجمالي ، محمد فاضل (١٩٦٧) : تربية الانسان الجديد
(محاضرات في مبادئ التربية أُلقيت بالجامعة التونسية) ، ٣٠٩ صفحة •
الشركة التونسية للتوزيع (تونس) •
- دراز محمد عبد الله (١٩٤٨) ، (١٩٧٤) دستور الأخلاق في
القرآن : ترجمة عبد الصبور شاهين ، مراجعة السيد بدوي ، مؤسسة
الرسالة (بدون) ودار البحوث العلمية (الكويت) •
- ديوي ، جون (١٩٦٦) • المبادئ الأخلاقية في التربية ، ترجمة
عبد الفتاح السيد هلال ، مراجعة أحمد فؤاد الأهواني ، ١٤٠ صفحة •
الدار المصرية للتأليف والترجمة (القاهرة) ، (يناير ١٩٦٦) •
- شديد ، محمد (١٩٦٩) منهج القرآن في التربية ، ٣٧٠ صفحة •
مؤسسة الرسالة (بيروت) •

شلبى ، أحمد (١٩٥٤) : تاريخ التربية الاسلامية • دار الكشف
(بيروت) ، ٤٤٨ صفحة •

عبد الوهاب ، حسن حسنى (ناشر) : (١٣٤٨ هـ الموافق ١٩٢٨ م) ،
آداب المعلمين (مما دون محمد بن سحنون عن أبيه) : ٦٤ صفحة
(تونس) •

• الغزالي ، الامام أبو حامد محمد بن محمد (٤٩٥ هـ الموافق
١١٠١ م) : احياء علوم الدين : الجزء الأول والثالث : دار المعرفة
للطباعة والنشر (بلون) •

الغزالي ، الامام أبو حامد محمد بن محمد (٥٠١ هـ الموافق
١١٠٨ م) : أيها الولد : ترجمة توفيق الصباغ ، تقديم جورج شرر
(الطبعة الثالثة) اللجنة اللبنانية لترجمة الروائع (بيروت) ،
(١٩٦٩) •

فرانكل ، تشارلس (محرر) : (١٩٦٣ م) نظرات في التعليم
الجامعي ، ٢٧٨ صفحة : ترجمه وقدم له محمد توفيق رمزي ، صدر له
حسن جلال العروسي ، دار المعرفة (القاهرة) . الكتاب نشر في ١٩٥٩ م
في نيويورك بواسطة هاربر واخوانه •

• فهمي ، أسماء (١٩٤٧ م) : مبادئ التربية الاسلامية ، مطبعة لجنة
التأليف والترجمة والنشر (القاهرة) •

فور ، أيدجار ومن معه (١٣٩٤ هـ ، ١٩٧٤ م) : تعلم لتكون ،
٣٠٠ صفحة ، ترجمة جنى بن عيسى ، اليونسكو / الشركة الوطنية
للنشر والتوزيع (الجزائر) •

القاضي ، علي (١٣٩٦ هـ ، ١٩٧٦ م) : ديناميكية التربية الاسلامية :
للتعلم الاسلامي : السنة الثلاثون ، الجزء الثاني عشر (جمادى الآخرة
١٣٩٦ هـ الموافق يونيو ١٩٧٦ م) ص ٣٥ - ص ٤٣ (مكة المكرمة) •

: القرضاوى ، يوسف (١٣٨٩هـ - ١٩٦٩م) : « فقه الزكاة »
(دراسة مقارنة لأحكامها وفلسفتها في ضوء القرآن والسنة) من
جزئين ١٢٢٧ صفحة (دار الارشاد ، بيروت) .

القرضاوى ، يوسف (١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م) : الجبل الإسلامى
فريضة وضرورة ، ٢٦٣ صفحة مؤسسة الرسالة (بيروت) .
قطب ، محمد . (١٣٩٤هـ ، ١٩٧٤م) : منهج التربية الإسلامية ،
٢٩٤ صفحة ، دار الشرق (بيروت) .

الكنانى ، بدر الدين أبو اسحاق ابراهيم سبحد الله ابن جماعة
(المتوفى ٧٣٣هـ) : « اقرأ باسم ربك الذى خلق » تذكرة السامع
والتكلم فى أدب العالم والمتعلم : طبع تحت ادارة جمعية دائرة المعارف
العثمانية - حيدر آباد - الدكن - (١٣٥٣هـ) صفحات (٢١ +
٢٣٦) .

المصرى ، محمد أمين (١٩٦٧) لمحات فى وسائل التربية الاسلامية
وغاياتها : ٢٥٤ صفحة ، دار الفكر (بيروت) .

المودودى ، أبو الأعلى (١٩٥٢م) : منهج جديد للتربية والتعليم .
لاهور .

النجار ، زغلول راغب محمد (١٣٩٦هـ - ١٩٧٦م) عن ضرورة
اعادة كتابة العلوم من وجهة النظر الاسلامية : مؤتمر التضامن الاسلامى
الأول فى مجالات العلوم والتكنولوجيا (الرياض) .

الندوى ، أبو الحسن على الحسنى (١٣٨٨هـ ١٩٦٩م) : نحو
التربية الاسلامية الحرة فى الحكومات والبلاد الاسلامية ، ١٠٢ صفحة ،
دار الارشاد (بيروت) .

الوجاج ، الحسين (١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م) : معاهد العلوم وتطورها
فى الاسلام ، المجلة الاسلامية - العدد الثانى ، ص ٨٥ - ص ٩١
(الرباط) .

يـالـجـن ، مـقـدـاد (١٣٩٦ هـ - ١٩٧٦ م) : مـنـهـج التـرـيـة الـاـيـمـانـيـة :
المـسـلم المـعـاصـر : العـدـد الخـامـس (مـحـرم - رـبـيـع أول ١٣٩٦ هـ المـوـاقـق
يـنـاـير - مـارـس ١٩٧٦) •

يـالـجـن ، مـقـدـاد (١٣٩٦ هـ ، ١٩٧٦ م) : خـصـائـض التـرـيـة الـاسـلامـيـة
ومـمـيـزـاتـه الـاسـاسـيـة ، المـسـلم المـعـاصـر ، العـدـد الـسـادـس (رـبـيـع ثـانـي -
جـمـادى الثـانـيـة ١٣٩٦ هـ ، أـبـرـيل - يـونـيـو ١٩٧٦ م) ص ٨٧ - ص ٩٦ •
يـالـجـن ، مـقـدـاد (١٣٩٣ هـ ، ١٩٧٣ م) تـحـت الطـبـع ، تـوجـيـه المـتـعـلم
الى أـفـضـل طـرق التـعـلـيـم فى ضـوء التـفـكـيـر التـرـبـوي والـاسـلامـي ، دار
الـبـحـوث العـلـمـيـة (البـكـويـت) •

ثانياً : المراجع الأجنبية

- Ahmed, Khurshid** (1968) : Principles of Islamic Education 4th. Edition, pp. 1 — 26 : Islamic Publications Ltd, Lahore Decca — Karachi.
- Ahmed, Khurshid**, (Editor), (1975) : Islam, its meaning and message, Islamic Council of Europe (London).
- Bell, B.I.** (1949) : Crisis in Education, a Challenge to American Complacency:Mc Graw-Hill Book Co., Inc., New York.
- Bowden, Lord B.V.** (1971', The Crisis of World universities : 700 Years of Anarchy : Philos, J. Vol.3, No.2 PP. 71—92.
- Bowden, Lord B.V.** (1974) : Opening Address, Conference of crisis in Engineering and Scinece Education, UMIST (Manchester, England).
- Coombs.P.H.** (1968) The World Educational Crisis : pp.1—x + 1 — 241, Oxford, University Press (New York), London, Toronto).
- Council on Education in The Geological Science (C.E.G.S.)** Publication No. B (1971).
- Di Vesta, F.J. & Thompson G.G.** (1970) : Educational Psychology, Instruction and behavioral Change, (Appelfon-Century — Crofts Educational Division). Meredith Corporation (New York) pp. 718.
- El-Naggar, Z.R.** (1975) On a proposed System for teaching Geology at the university level : Seminar on methods of undergraduate teaching (Science) : Kuwiat University,. (May 3, 1975).
- Fletcher, C.S.** (Editor), (1962) : Education the Challenge Ahead.
- Gheith, M .A.** (1974) : Towards and effective, humane Earth Sciences Education : Second Arab Mineral Wealth Conference (Jeddah, November 2—8, 1974) Conference Documents, Background Papers pp. 122 — 139.

- Jaradat, Izzat**, (1975) : Islam and education for development : Proc., 4th., Annual Conuention of the Association of Muslim Social Scientists Vol. 1, pp. 59 — 70.
- Khawaja, I.** (1976) : Fundamental Problems of Education in Muslim Countries : Proc. Islamic Solid. Conf. Sci. & Techn. (Riyadh/Saudi Arabia), pp. 134 — 144.
- Mather, Sir Willam** (1974) : An industrialists View : Conference on Crisis in Engineering and Science Education in the West, UMIST, July, 1974.
- Mc Donald, F-J.** (1969) : Educational Psychology, Second Education 6th. Printing, Wadsworth Publishing Co., Inc., (Belmont, California), 710 pp.
- Nadawi, S. Abul Hasan Ali** (1976) : Significance of the System of Education in Muslim Countries and its far-reaching effect on their leadership and intellectual trends; Al-Ittihad (Indianapolis/Indiana) Vol. 13, No. 1, (April, 1976), PP. 26 — 30.
- Niblett, E.R.** (Editor) 1963 : Moral Education in a Changing Society; Faber & Faber Ltd., (London).
- Niblett, W.R.** (Editor) 1969 : Higher Education : Demand And Responsibility; pp. 1-261 + i — x. Tavistock Publications (London-Sydney-Toronto-Wellington).
- Phenix, P.H.** (1966) : Education and the Worship of God; The Westminster Press (Philadelphia).
- Rosenhead, J. & Norden, T.** (1963) : Threats to University Independence; New Scientist pp. 604 (March, 1963).
- Tibawi, A.L.** (1967) : Arabic And Islamic Themes Historical, Educational and Literary Studies); 409, Luzac & Co., Ltd., (London).
- Wingo, G.M.** (1974) : Philosophies of Education : An Introduction pp. 1 — 367, D.C. Heath and Co., (Lexington/Massachusetts; Toronto, London).
- Waddy, Charis** (1975) : The Muslim Mind pp.i— XVII + 1—204, Longman (London; New York).

البديل الحضارى للمجتمع المعاصر

د. عزت جرادات

تركيب المجتمعات :

لقد اختلفت الآراء وتعددت وجهات النظر فى تحديد مفهوم المجتمع لدرجة لم يتوصل علماء الاجتماع الى تحديد مفهوم واحد له فهو تركيب متكامل لعلاقات اجتماعية ما بين أفراد ومجموعات ومؤسسات ، وهو الاطار الذى يتمكن فيه الفرد من ممارسة نشاطاته الحياتية كاملة ، فى علاقاته مع نفسه ، ومع الفئات والمجموعات الأخرى ، وارتباطه بالمصير المشترك لتلك الجماعات والفئات وما تتأثر به من أحداث وتغيرات .

وتنبثق عن المجتمع - أى مجتمع - طريقة حياة يمكن تلمسها عبر ما يسمى بثقافة المجتمع التى تحدد أنماط تفكيره ، ونشاطاته ، ومشاعره على أسس من المعرفة والمعتقدات والأخلاقيات ، والعادات ، والقدرات المكتسبة لدى أفرادهِ . فالأفراد فى حد ذاتهم لا يكونون مجتمعا إلا إذا امتلكوا ثقافة ، وكانت لهم مقاييس عامة مشتركة للخير والشر ، للحق والباطل ، للخطأ والصواب ، للمناسب وغير المناسب وتتقارب اتجاهاتهم فى تفسير معارفهم والبيئة التى يعيشون فيها : فالثقافة جزء تكوينى من تركيب المجتمع وأفراده وهى لذلك تراث طبيعى للبشرية

وقلما يتجه الانسان ، كفرد في مجتمعه ، الى محاولة لتقويم أنماط مجتمعه السلوكية بموضوعية بعيدة عن تحيزه اللاشعورى غير متأثر بثقافة مجتمعه . وقد لا يدرك ما في ثقافة مجتمعه من خيرات وتجارب الا اذا وجد نفسه في موقف احتكاك أو تفاعل أو صراع مع ثقافة مغايرة . . . مثلما يحصل تماما مع ساكن قاع البحر . . . فان آخر شىء يفكر في اكتشافه ومعرفته هو الماء . وقد لا يفكر في اكتشافه إلا اذا أوجدته الصدفة على السطح وتعرض للهواء . وحتى ندرك أبعاد ثقافة المجتمع فانه يمكننا تحديد مقوماتها لثلاثة عناصر هي :

مؤسسات المجتمع ، بما فيها من أنظمة وضوابط سلوكية .

أفكار المجتمع - اى المعرفة والمعتقدات .

المنجزات المادية للمجتمع : أى محصلة الانجاز الجماعى لأفراده .
فأهمية الثقافة ، تكمن اذن ، فى قدرتها على تزويد المجتمع بالمعرفة والتقنية اللتين تمكنان افراده من السيطرة على بيئتهم ، ومن حفاظهم على بقائهم جسديا واجتماعيا .

وهذه المقومات هى ما سوف تقتصر على معالجتها اذا ما أردنا التحدث عن مؤسسات المجتمع ، فسوف تتناول منها أهم المؤسسات المؤثرة تأثيرا مباشرا على الأفراد . فالفرد لا يمكن له البقاء دون انتماء لمجتمع فالخبرات التى يكتسبها هى خلاصة ارتباطاته بثقافة المجتمع وممارساته الحياتية مع أفراده وأهم تلك المؤسسات :

١ - العائلة :

ويعتبرها علماء الاجتماع المؤسسة الرئيسية فى التأثير على الأفراد فى عملية « التطبع الاجتماعى » ويرجع تأثيرها الى ضعف الوليد البشرى وحاجته الى الرعاية ضمن علاقات عاطفية واجتماعية تؤدى الى قيم وأنماط سلوكية تتعمق فى الفرد .

٢ - المؤسسات الثقافية :

ان العائلة لن تكون قادرة بمفردها على تدريب الفرد وإعطائه لادوار مستقبلية فترتبط العائلة بالمؤسسات التي يتأثر بها الأفراد وهي ما يمكن حصرها ضمن المؤسسات الثقافية : كالمدارس النظامية ووسائل الإعلام • وتستطيع هذه المؤسسات أن تعمق القيم التي تهدف كل منها الى تحقيقها في الأفراد •

٣ - المؤسسات الاجتماعية - الاقتصادية :

يتعذر في المجتمع المعاصر أن ينظر للمؤسسة الاجتماعية دونما اعتبار للبعد الاقتصادي الذي تنطوي عليه تلك المؤسسة • ولذا فإن المؤسسات الاجتماعية - الاقتصادية ذات تأثير كبير على الأفراد • إلا أن مردود هذا التأثير قد لا يلمس على المستوى الفردي ، فيأخذ طابعا جماعيا عاما يؤثر في المجتمع وتركيبه كما يؤثر المجتمع بتغييراته في تلك المؤسسات الاجتماعية - الاقتصادية ، أما أفكار المجتمع ، فيمكن تحديدها بالمعتقدات والمعارف والقيم التي تتعلق بالأفراد وارتباطاتهم بعالمهم الذي يعيشون فيه فهي تشمل الأفكار العامة التي يعتمدها الأفراد في تكوين تراثهم الشعبي والديني والعلمي والفلسفي والمسلكي • وهي تشمل القيم ، والمثل العليا التي يعتمدونها في تحديد أهدافهم وسلوكهم ولتحديد معنى النجاح والتبرير والشرف ، والشجاعة الوطنية ، والولاء والاخلاص والكفاءة • وهي تشمل المعايير والمقاييس التي يعتمدها الأفراد في تكوين أنماط أحكامهم وتقويمهم لما يجري في مجتمعهم • فيكون الأفراد قادرين على تقبل مبادئ عامة مشتركة فيما بينهم في المعارف ، والممارسات ، وأما المنجزات المادية فتشمل ما يبدعه ويستخدمه الانسان أو الأفراد ، بدائية كانت تلك المنجزات كالفأس الحجري ، أو حديثة كالحاسب الالكتروني ، إلا أن قيمة هذه المنجزات هي في حجم مردودها واستخدامها لخدمة البيئة وللغاية التي يحددها الأفراد أنفسهم •

نمو المجتمعات والحضارات :

ان الحصيلة النهائية لدور المجتمع التاريخي تقاس بمدى دوره الحضارى : حماية وتقلا أو ابتكارا أو ابداعا . وتختلف الآراء والاتجاهات فى قياس هذا الدور . إلا أن آراء معظم علماء الاجتماع تتفق على أن المجتمعات تظل فى نمو مستمر ما دامت قادرة على العطاء الحضارى فعلا وابداعا ومجابهة لكتلة العالم والطبيعة ، واستجابة للتحديات الدائمة تهيئة وإعمارا وتمهيدا وتطورا . ومن هذا المفهوم ، يمكننا القول : إن التاريخ الحضارى يبدأ مع الخليقة فى إعمار الإنسان للأرض بعدة كافية لهذا العمل وبامتلاك الشروط الأساسية لمجابهة العالم وتحويله وتغييره وتطويره وبما ركب فيه الخالق من عقل وروح وإرادة وتكيف جسمى ، وبما هياه الله فى الأرض وما حولها من امكانات فتنمو المجتمعات بقدر ارتباطها بالرسالة الحضارية للإنسان على الأرض وربما لم تكن كلمة حضارة شائعة فى استعمالات العربية اللغوية أول مرة ، الا ان ابن خلدون يكاد يكون أول من نبه اليها واستخدمها فى (مقدمته) غير ان اصطلاحه الذى كان يستغنى به معظم الأحيان عن هذه الكلمة هو (العمران البشرى) الذى يقابل (الحضارة البشرية) . ومهما يكن من أمر ، فان المصطلح الحضارى قد فرض نفسه فى القرن الأخير سيما بعد الاحتكاك الثقافى الشامل بين الشرق والغرب .

ان قبولنا للمصطلح الحضارى هو تسليمنا بالمقياس أو الدور الحضارى للمجتمعات فالمجتمعات التى التزمت بالدور الحضارى ، وبما دون أن تشعر ، حماية وتقلا أو ابتكارا أو ابداعا ، قد تركت حصيلة من التراث الحضارى الذى أخذ مكانه فى البناء الحضارى العالمى ، فى حين أن المجتمعات التى لم تدرك دورها الحضارى عن قصد أو عن غير قصد ، لم تترك من التراث ما يمكن أن يأخذ مكانه فى بناء الحضارة العالمية . ولعل من أقرب الأمثلة على ذلك ، مجتمع أثينا ومجتمع اسبرطه ، أو مجتمع بغداد وغزو هولاكو ، أو مجتمع الشرق الاسلامى وغزو الصليبيين . ففى حين نرى تراث مجتمع أثينا والمجتمع الاسلامى

في بغداد أو فلسطين تراثا مرتبطا بالحياة ، فانا لا نقرأ عن مجتمع اسبرطة أو هولاء أو الصليبيين سوى الدمار والعدوان ... فنمو المجتمعات الحضارية هو تغير تاريخي في دورة لا متناهية من الازدهار من مرحلة بدائية الى متطورة متقدمة .. تعثره منعطفات حادة ... فعندما تبرز مسببات عامة للتغير التاريخي فان وضعا اجتماعيا جديدا يبرز كنتيجة حتمية .. وان عجلة التغير التاريخي لن تتوقف الا بعامل دمار عام أطلق عليه ابن خلدون (الموت الأسود) وسواء قصد بذلك خط الغزو المغولي ، أو شعوره ببداية تفوق أوروبا على المجتمع المسلم .. أو عوامل داخلية يتآكل المجتمع بسببها ، فان تفسيره هذا يتفق مع رأى علماء الاجتماع الذين يرون في الحرب دمارا للتقدم التكنولوجي .

ويرى هيجل أن النمو الحضارى هو مسألة دانيامية شاملة تنبثق من صراع النقيضين في عالم الأفكار في تسلسل طويل ينتهى الى مرحلة وصول العقل الى حقيقة الخالق .. واما ماركس فانه يأخذ عن هيجل دانيامية الحركة الحضارية المتولدة عن صراع النقااض . الا انه يقصرها في نطاق المادة ووسائل الانتاج والظروف التى يعمل فيها ، أما توينبى فيرى النمو الحضارى وليد مقدرة الجماعة الانسانية على الاستجابة للتحديات البيئية الجغرافية والبشرية ، المحيطة بها ، ويتناسب حجم العطاء الحضارى كما ونوعا تناسبا طرديا مع حجم الاستجابة لمقاييس الكم والنوع وحينما يصل تاريخ مجتمع الى منعطف حاد ، فان دورة حضارته تدخل في مرحلة حرجة ، فانه يصل الى المنطقة التى تتصل فيها نهاية عهد ببداية عهد آخر ، أو تتجاوز فيها ماض مظلم مع مستقبل مشرق ويمكننا أن نستخلص من هذه الآراء أن نمو حضارة أى مجتمع يتوقف على تكامل عناصر الانسان والتراب والزمان : فالانسان : بما لديه من ثقافة ، وما له من مواهب وقدرات ، وبما يمتلك من امكانيات مادية ، يستطيع أن يؤثر في مجتمعه بفكره وبعمله وبماله وهذا يتطلب بعدا سلبيا يفصل انسان الحاضر عن تخلف الماضي وبعدا ايجابيا يصله بمقتضيات المستقبل .

لقد مر انسان الغرب في حضارته متأثرا بانسانيات الاغريق اللاتينية ، كما طبع ماركس كل القيم بوظائفها الاجتماعية ، أما الانسان العربي المسلم فقد جاءت الحضارة الاسلامية بتحديد البعدين السلبي والايجابي مرة واحدة فقد نفت الأفكار الجاهلية المرتبطة بما في الانسان ، ثم رسمت طريق الفكرة التي تخطط للمستقبل بطريقة ايجابية .

وحيثما تكلم عن التراب ، كعنصر لنمو الحضارة ، فاننا لا نبحث في خصائصه الجيولوجية أو الجغرافية . . . ولكننا نعنى قيمته الاجتماعية المستمدة من قيمة مالكيه ، فالمجتمع المتخلف يكون ترابه على قدر من الانحطاط ، والمجتمع المتقدم يكون ترابه غالي الثمن ، فالتراب يكون على شيء من الانحطاط بسبب تخلف وضعف القوم الذين يعيشون عليه . . فكم من صحراء حولها أصحابها الى جنات خضراء . . وكم من جنات خضراء زحفت عليها الصحراء حيث وقف أصحابها موقف المتخلف الضعيف . . ان مثل هذا التحول في الأرض الخصبة الى فلاة ثم الى صحراء ، يؤدي الى تحول في الحياة الاقتصادية . فيفرض التراب على الانسان نمط حياة راکدة لا صلة لها بعطاء حضاري .

وأما الزمن وأثره في البناء والتكوين الحضاري ، فهي فكرة متصلة اتصالا وثيقا بالتاريخ ، اذ أن تحديد فكرة الزمن ، تحدد معنى التأثير والانتاج في الحياة فتخضع الحياة للتوقيت ولعامل الوقت فإذا دخل الوقت في أسلوب حياة في المجتمع وفي سلوك أفرادها وإذا ما استغل الوقت ، فلم يضع سدى ولم يمر كسولا ، فسوف يرتفع الحصار العقلي واليدوي والروحي . وفي عكس ذلك : فان الوقت يزحف صوب التاريخ ليسجل نقطة ضعف في حضارة المجتمع . فان العملة الذهبية قد توجد بعد أن تضيع ، ولكن لن تستطيع قوة في العالم أن تحطم دقيقة وقت أو أن تستعيدها اذا مضت .

تحليل الاتجاهات الحضارية المعاصرة :

إذا ما أردنا أن نلقى الأضواء على الحضارات المعاصرة أو الحضارة العالمية المعاصرة ، فإننا سنتناول في البحث المعطيات الثقافية والمادية للحضارة . ومن ثم أثر هذه المعطيات على الإنسان والتراب والزمن .

فالمعطيات الثقافية للحضارة هي ما أسميناه أفكار المجتمع المتمثلة بمعتقداته ومعارفه وقيمه التي تتعلق بالأفراد وارتباطاتهم بعالمهم الذي يعيشون فيه . لقد أثرت الحضارة بأفكار الإنسان المعاصر فمر في عدة مراحل كانت البيئة عاملاً يربط ما بين الإنسان وثقافته فاعتمد على أسلوب المحاولة والخطأ . وفي المرحلة الثانية أصبحت الثقافة هي التي تربط بين الإنسان وبيئته حيث أوجد المؤسسات لخدمته ، ثم بدأت تتداخل عوامل البيئة والثقافة والإنسان لتكوين اتجاهات جديدة وأنماط سلوك اجتماعية جديدة وأيديولوجيات متطورة فوصلت الحياة على الكرة الأرضية إلى نقطة حرجية تستدعي أن يتغلب الإنسان على بيئته وأن يوجد الوسائل للسيطرة عليها وضبطها ، فقد تضخمت الثقافة وازدادت البيئة تهديداً ، وأصبح العبء الثقافي ثقيلاً . وأعنى بالعبء الثقافي : الإرهاق الاجتماعي الذي يعيق حس الإنسان لاتخاذ قرار ، أو موقف معين ، أو عمل محدد ، أو يعالج مشكلة ملحة ، أو ليجد وقتاً لنفسه مع نفسه . وإن العبء الثقافي هو ذلك الإرهاق الذي يحول دون وجود توازن في السلوك الإنساني فتتحول الحياة إلى صراع يضطر فيه الإنسان لبذل جهوده واستنفاد طاقاته ليجد له مكاناً في ذلك المجتمع الإنساني المتشابك فيجد نفسه غريباً حائراً حتى في الإطار الاجتماعي الأساسي وإطار العائلة . إن ظواهر الانقراض أو التلاشي العائلي تبدو حتمية في عام الألفين في مجتمع (ما بعد الصناعي) إذ يلاحظ التفكك الأسري في المجتمعات المتقدمة المعاصرة في ضعف ارتباط الأبناء بالآباء قبل أن يبلغوا السادسة عشرة ، فيصبح المراهقون مسؤولين عن تصرفاتهم ويزداد عدد الأمهات غير المتزوجات ، وتتضاعف ملاجئ الأطفال وتصبح الممارسات الجنسية حرية شخصية ، ويصبح الشذوذ الجنسي تجربة للتأقلم والتكيف

لحياة القرن الحادى والعشرين كما نلحظ ذلك التفكك فى ايداع الآباء المسنين بيوت العجزة من قبل أبنائهم وحقنهم بحقن تؤدى الى الموت البطيء دون قلق • لا لذنوب اقترفوه ، إلا لأنهم لم يخططوا لمستقبلهم التقاعدى • فأصبحوا أدوات اقتصادية بالية استنفدت ، ولم تعد قابلة للإنتاج ••

لقد أدت المعطيات الثقافية للحضارة المعاصرة بالمؤسسة الاجتماعية أو الثقافية أو الاقتصادية ، والتي وجدت منذ عرف الانسان هذه المؤسسات لخدمة الإنسان وتطويره • لقد أدت بها الحضارة المعاصرة إلى معاملة الإنسان باعتباره رقما احصائيا : فهو لا يعرف فى عمله إلا برقمه ، وهو لا يخاطب المؤسسة إلا بذلك الرقم •• وبالتالي أصبح من السهل على تلك المؤسسة أن تلغى ذلك الرقم من تعاملها •• ولم يعد يكلفها ذلك أكثر من اشارة بسيطة تودع الحاسب الالىكترونى (الكمبيوتر) ليجد نفسه بلا قيمة اقتصادية •

ان نظرة تحليلية لظواهر المجتمعات المعاصرة لتشير الى أن الفقر والبطالة وارتفاع الأسعار والانحطاط البيئى ، والجرائم المنظمة وغير المنظمة (والخبل أو العزلة الانسانية) ستهزم أية محاولات عادية لتحسين مستقبل الانسان الذى أصبح يعاني عالميا من مشكلات معقدة مثل :

١ - المأساة العامة : اذ يعاني الانسان من مشكلة الأرض والهواء والطاقة وتلوث البيئة •• وأثر هذه المشكلات على مصادر تغذيته ، وامكانيات حياته ونقاء هوائه •

٢ - البطالة : اذ لم يعد يجد الانسان فى المجتمع الصناعى الفرصة العادلة ليساهم فى خدمة المجتمع الذى ينتمى اليه •

٣ - غلاء الأسعار : حيث لم يعد هدف المجتمع الصناعى هو الحد من ارتفاع الأسعار بل التفكير فى طرق لزيادة الأجور وهذه يرافقها - كنتيجة حتمية استمرار ارتفاع الأسعار (وليس أدق من تصوير لهذه

المشكلة من وصف الرئيس الأمريكى السابق « فورد » لها بأنها عدو الشعب الأمريكى رقم ١) •

٤ - الخبل والعزلة الفردية : ان القاعدة التى تعتمد عليها المؤسسات فى المجتمعات المعاصرة هى ان الاهتمام (فن العمل هو العمل)

The Business of Business is Business

جعلت تلك المجتمعات تعتبر العالم الثالث عالما مصدرا للمواد الخام • مستهلكا لانتاج العالم الصناعى ••• ان مثل هذا الاتجاه قد جعل انسان المجتمع المعاصر يتصرف ويسلك وفق ما تقتضيه متطلبات ذلك الانتاج حتى لو لم يكن ذلك التصرف أو السلوك منسجما مع ذاته وتفكيره فينتهى ذلك الانسان الى خبل وربما عزلة عن مجتمع بمؤسسات أدرك سر كيانها وبقائها • ألا وهو اعتبار الانسان مجرد رقم احصائى • ومن ناحية ثقافية حضارية : فقد أصبح الزمن والتراب (أى المكان) بالعناصر التى لا يستطيع الانسان أن يمارس دوره كإنسان دونما اعتبار احصائى للزمن ، واحصاء قياسى للمكان فدخلت إلى تحليلاته العقلية اعتبارات آلية : فهو يعتمد الكمبيوتر مثلا ليتوقع احتياجاته فى عام ٢٠٠٠ مثلا •• أو كيف ستكون خريطة العالم (مثل كتاب ١٩٨٤) أو كيف ستكون الارتباطات الاجتماعية والعائلية عام (مثل كتاب عام ٢٠٠١) ومع أنها توقعات الا أن مجرد ادخالها العقل الألكترونى ، يصبح له تأثير نفسى على هذا الانسان الذى يخطط من وراء معمله المخبرى لمستقبل أجيال فيتأثر السياسى بقراراته السياسية ، والاجتماعى بتطلعاته ، والتربوى بخططه المستقبلية • وربما العسكرى فى أساليب دمار العالم أو فنائه • وإذا ما أضفنا إلى هذا العالم وان كان متباعدة ثقافيا ، فقد أصبح متقاربا جغرافيا ، مما يجعل المكان تحت سيطرة الحضارة المعاصرة خيرها وشرها والأرقام التالية تبين مدى السيطرة التى حققها الانسان على الزمن والمكان فى ميادين المواصلات ونسبة تصاعد وتزايد « السرعة » منذ بدء الانسان حتى العصر الحاضر •

عدد السنوات التي السنة الوسيلة السرعة (ميل/الساعة)
تم فيها الانجاز

٣	ما قبل التاريخ	الاقدام	
٨	٦٠٠٠ ق م	الجمال	
١٠	١٧٨٤ م	العربة والحصان	
١٣	١٨٢٥ م	الآلة البخارية	٦٥
١٠٠	١٨٨٠ م	= السريعة	٥٨
٤٠٠	١٩٣٨ م	الطائرة	
٤٠٠٠	١٩٦٠ م	الطائرة النفاثة	٢٢
١٨٠٠٠	١٩٦٠ م	الصواريخ	

ويلاحظ من هذا الجدول أن ملايين السنوات قد مرت حتى تصاعدت سرعة المواصلات من ٣ — ١٣ ميلا في الساعة ، وستين (٦٠) سنة لتصعيد السرعة الى (١٠٠) ميل / الساعة ، وستين (٦٠) أخرى لمضاعفتها أربع مرات بينما ثلاثين سنة فقط لتصعيد السرعة أكثر من (٤٠٠) مرة •

وأما الحديث عن المعطيات المادية (التكنولوجيا) فسوف تقتصر فيه على نماذج تعتبر مؤشرات لمؤثراته الخطرة اذا ما استمرت بلا ضوابط ••• وسنتعرض لبعض آراء كتاب الحضارة المعاصرة في تحليلاتهم لمستقبل المجتمع الصناعي وتصوراتهم لمجتمع ما بعد المجتمع الصناعي •

يقول Alvin Toffler في كتابه المقروء الواسع الانتشار Future Shock (صدمة المستقبل) :

ان حضارة هذا المجتمع وبتأثير معطياتها الثقافية والمادية قد أنشأت الشخصيات الغريبة : فالأطفال في سن الثانية عشرة لم يعودوا أطفالا والكبار في سن الخمسين يتصرفون وكأنهم أطفال في الثانية عشرة ، ان هناك أغنياء بتصرفات الفقراء ، ويساريين بشباب اليمين ، ويمينيون بشباب

الإنسان، وهناك ذوو العقل المبرمج (خبراء الكمبيوتر) المدمنون على المخدرات ونوادى الشذوذ الجنسى ، وشركات الأفلام الجنسية المتطرفة ، ومصممو الجريمة المنظمة .. ان تأثيرات الثورة التكنولوجية المعاصرة ستكون أعمق من أى تغيير اجتماعى مر بنا كجنس بشرى ..

ان التقدم التكنولوجى قد وضع مقاييس جديدة للجنس البشرى فلم يعد سكان المعمورة يقسمون حسب الجنس أو العنصر أو القومية أو الدين أو الأيديولوجية فحسب . بل بعامل الزمن أيضا : فان ٧٠٪ من سكان العالم ما زالوا يعيشون على الطرق البدائية كالصيد والزراعة فهم سكان الماضى . بينما ٢٥٪ زمنيا يعيشون فى مجتمعات صناعية ، فهم سكان الحاضر ، وهم النصف الأول للقرن العشرين صهرتهم الآلة .. والتربية الجماهيرية . وأصبحت حياتهم الزراعية مجرد ذكريات .. وهناك نسبة ضئيلة (٥٪) تسكن مراكز العالم الصناعى فهم ليسوا سكان الماضى وليسوا بسكان الحاضر . انهم سكان المستقبل يخططون لمجتمع ما بعد المجتمع الصناعى الذى سيشهده التاريخ فى بداية القرن الحادى والعشرين بما يخفى من معطيات مجهولة .

إن البحث عن وسائل جديدة للحياة كحركة الهيبيين - مثلا - قد تكون تعبيراً عن رفض القيم التى فرضتها التكنولوجيا فأصبحوا يصفون الحياة بأنها (تسابق القتران) ..

وقد ينطوى مفهوم الزمن لدى الآباء والأبناء على هوة متباعدة فى التفكير فالزمن فى نظر الآباء يمر سريعا ، بينما فى نظر الأبناء هو أقل سرعة ، ان وعد الأب الذى يبلغ الخمسين بأن يحصل ابنه البالغ الخامسة عشرة على سيارة بعد سنتين .. فان فترة الـ ٧٣٠ يوما هذه ليست سوى ٤٪ من عمر الأب الاتجاجى بينما هى تمثل ١٣٪ من عمر الابن .. كما أن ساعتين من عمر الطفل فى الرابعة من العمر تعادل اثنتى عشرة ساعة من عمر والدته فى الرابعة والعشرين ان هذا الفارق بين جيلين فى الاعتبار الزمنى ، ينطبق على شعوب الثقافات المختلفة .. فان لكل

ثقافة مفهومًا للتحرك الزمني • ويضرب لنا مثلاً على ذلك : الروائي
الإيراني Esfandlary في فترة ما قبل الحرب العالمية الثانية عندما
كان الألمان ينون خطاً حديدياً في إيران : فقد عانى الطرفان من التناقض
في مفهوم الزمن ، بين ثقافة ألمانية أكثر حرصاً على الوقت ، وبين ثقافة
إيرانية تأخذ الوقت بارتياح وارتخاء •• لدرجة أن تراجع المهندسون
الألمان عن قراراتهم بفصل العمال الذين يتخلفون دقائق عن العمل •
عندما تبين لهم أنهم لن يجدوا بعد فترة سوى الأطفال والنساء للقيام
بالعمل •• كما يلاحظ الفرق في استيعاب الزمن حتى لدى شعوب الثقافة
الواحدة ، فسكان المدن الشمالية الإيطالية لا ينظرون بتقدير لبطء
الصقليين وكذلك الحال بالنسبة لسكان الولايات الأمريكية الشمالية
والولايات الأمريكية الجنوبية •

ويستمر Toffler في تحليله لظواهر المجتمع المعاصر فيصف
مجتمع الرحل الجدد New Nomads فان الرغبة في عدم استقرار
الأفراد في مكان معين الدافع لظاهرة البحث عن عمل من مكان لآخر •
حتى ولو كان العمل غير مناسب • وإذا عجز المرء عن تحقيق ذلك ، فانه
يمتلك السيارة لتحقيق رغباته في الحركة والتنقل والترحال : ففي دراسة
إحصائية لرغبات الشباب الأمريكي أفاد ٦٧٪ من الفتيات أن أهم شيء
بالنسبة للشباب في نظرهن هو أن يمتلك السيارة •• كما عبّر عنها الشباب
بأنها أساسية لحياتهم •• فالشباب الذي لا يمتلك السيارة •• لن يمتلك
الفتاة الصديقة •• فان حجز رخصة السواعة من شاب في السابعة عشرة
من قبل والده بسبب السرعة •• أدت به الى اقتراف جريمة الاتجار •
ويمضي Toffler في تحليله قائلاً : ان انسان المجتمع الصناعي لن
يشعر بالطمأنينة في البيت مع أنه يقيم فيه •• فهو كالغريب أو المقيم في
بلد غريب يتحرك من مكان لآخر تلقائياً ، الى أن يصل به الشعور الى
أنه غريب في أرض غريبة •

لقد امتد تأثير مجتمع الغربة ليشمل الوحدة الاجتماعية الأساسية
في المجتمع - وهي العائلة - فلم يعد الزواج في مفهوم الجيل التكنولوجي

هو الاستقرار بل أصبح سجنًا يحول دون الحصول على المتع المتجددة في الحياة • فنشأ لدى الجيل المعاصر ما يسمى بالزواج التجريبي • وسرعان ما ينتهي هذا الزواج • ليعود الشباب يبحث عن إطار جديد ينظم فيه علاقاته الجنسية فيختار إطار الحياة الزوجية بلا إنجاب ويلجأ لتبني طفل وربما شرائه • • وسرعان ما يغادر هذا الطفل والديه • • وربما لضعف روابط الانتماء والولاء • • ثم يتعرض إطار الحياة الزوجية لوفاة أحد الطرفين • • فيلجأ الآخر يبحث عن شريك حياة لتبادل الراحة الجسدية أو المتعة الجنسية بلا مسؤولية وعلى أساس تبادل الحاجات وهو ما يعتبره إنسان ذلك المجتمع بالزواج الحقيقي •

وهناك باحث آخر (ثيودور روزاك Roszak) قدم تحليلاً موضوعياً آخر للحضارة المعاصرة التكنولوجية في كتابين قرأهما معظم الأمريكيين كتاب (حيث تنتهي الأرض) وكتاب (كيف نضع ثقافة مضادة) ، يقول في كتابه الأول :

« ان التكنولوجيا الحضارية هي الوسيلة العالمية للتبادل والمشاركة الثقافية • ولكننا ونحن أصحابها ، قد أخطأنا استخدام هذه الوسيلة وملكيته : فقد اعتبرناها رمزا للتفوق الثقافي • • وجعلنا التكنولوجيا نفسها ثقافة بحد ذاتها ينبغي أن تقلد أو تفرض في أي مكان • • فالحقيقة الملموسة هي أن هذه التكنولوجيا ، تصحبها الكبرياء الغريبة قد عجزت أن تنقل قيمنا ، وأيدلوجيتنا ، ومعارفنا للآخرين بكفاءة ، كما فشلت أن تنقل العالم الثالث النامي ليستقي قيما وأيدلوجيات من غير منابع أصوله وجذوره بل وضعت الحواجز لتحول دون وصول الرسالة الغريبة وراء التكنولوجيا وفي المجتمعات الشيوعية : نرى سكان العالم ، وقد انتزعت منهم جذورهم • • بما تحتويه من معتقدات وقيم • • ليعيشوا في ظل نظام لم يكن له في تاريخهم تطور أو نشوء - ولم يكن سر نجاحه ان كان استمراره مؤشراً لنجاح ، سوى تقمصه لقيم اجتماعية جماهيرية • • ما هي في الواقع سوى بورجوازية القرن التاسع عشر العلمية بثوب جديد •

ان ما نريده من فلاسفة وعلماء التكنولوجيا الحديثة هو أن ينهضوا الى مستوى العصر . . فيستخدموا المعطيات التكنولوجية كبوقة قلتقى فيها ثقافات الماضى والحاضر كندين على أسس من احترام المضمون والمحتوى الثقافى لكل منهما ، خصوصا وان القوى المتعارف عاها عالميا هى التبادل الدولى : تجاريا ، وعسكريا ، وتقنيا . . ولن يكون أولئك العلماء غير خبراء التكنولوجيا فهم المعنيون بتصحيح مسيرتها وان نظرة على الظاهرة التقنية فى العالم لتوضح لنا أربعة ظواهر :

١ — تسود أمريكا وأوروبا واليابان تقنية تديرها الرأسمالية التى امتزجت بتركيب تلك المجتمعات . فأصبحت جزءا لا يتجزأ من كيانها . تتأثر بالمطالب الاجتماعية .

٢ — تسود المجتمعات الاشتراكية تقنية عامة تديرها أياد موجهة ومتأثرة بمطالب السلطة السياسية .

٣ — تسود المجتمعات النامية تقنية مسرحية نشأت فى تلك المجتمعات نتيجة اصرارها ومحاولاتها مواجهة التخلف واللحاق بالركب الصناعى ولم تستطع التوفيق فى تسير امكاناتها التقنية بين تقنية تخدم المطالب الاجتماعية وبين تقنية موجهة بالمطالب السياسية .

٤ — ان من ظواهر القرن العشرين هو التقنية الاستبدادية وربطها بنظام طبقى مثل النازية أو الستالينية أو نظام الأقلية فى جنوب افريقيا حيث مكنت التقنية تلك الأنظمة من إقنان الاستبداد أو الاستعمار .

إن الخبرة التقنية التى نتحدث عنها ، والتى تستطيع وضع ضوابط للمعطيات التكنولوجية للحضارة وينبغى أن تهدف الى تكوين مجتمع صناعى يتسم بالتحديث المستمر ، والابداع المتجدد ، والتبرير النفسى ، والتخطيط الشامل لتحقيق فى المجتمع الحضارى مطالب الكفاءة ، والضمان الاجتماعى والتنسيق البعيد المدى القوى بين البشرية والأمكانات المادية .

ومع ذلك فإن المتفحص للمجموع الكلى للقيم الحضارية التي تسود المجتمع الصناعي ، يرى أنها تتضمن قائمة من القيم الايجابية ، وان كانت ترجع في أصولها وجذورها للتراث الحضارى الانسانى لمختلف الشعوب والأمم ؛ إذ أن تلك القيم جاءت نتيجة لصراع تاريخى طويل فى المجتمع ضد الظلم والقلق فالثقافة الغربية ، قد تأثرت باتجاهات ثلاث : أولها اتجاه الدورة التاريخية التى سادت المرحلة الاغريقية والكلاسيكية ، وثانيها الاتجاه العلمانى الذى فرضته حركة الفصام بين الدين والكنيسة ، وثالثها الاتجاه التقدمى الذى فرضته الثورات الصناعية والعلمية ، وظل تمسك الفكر الغربى بفكرة التقدمية منذ ذلك الحين .

ومن جهة أخرى ، فإن أصول الثقافة المادية فى المجتمعات الاشتراكية ترجع الى تصميم ماركس فى القرن التاسع عشر ولم يكن هدف ماركس فى نظريته الثورية عداء المجتمع بقدر ما كان هدفه تخفيف حدة وطأة اللا سامية على بنى قومه اليهود فى أوروبا . . لقد اجتهد ماركس فى أنه اذا ما استبدل الدين بأيدلوجية علمانية ، فسيكون مردودها على اليهود مباشرة فى اكتسابهم لحقوقهم السياسية والاجتماعية والاقتصادية داخل الأنظمة السائدة آنذاك . ويدعم هذا الرأى ما جاء فى كتاب هرتزل « الفكرة الصهيونية » .

(اذا ما خاطبنا الغرب ، فاننا نخاطبهم بمفهوم الليبرالية التقدمية أى التكنولوجيا والعدالة الاجتماعية . ، أما اذا ما اتجهنا لمخاطبة الشرق فان الاشتراكية هى التى تلقى القبول الاجتماعى لدى أجيالهم . .) فالاشتراكية فى نظر هرتزل يعنى إحدى وسائل خلاص الجنس اليهودى . .

ويتضح من ذلك ، أن المعطيات الثقافية للمجتمعات الاشتراكية يرتكز على فكر بديل للفكر الدينى .

الحاجة لبديل حضارى :

ان هذا الاستعراض والتحليل لمقومات الحضارة المعاصرة ينتهى بنا الى القول :

١ — أن المجتمعات المعاصرة ، النامية والمتقدمة والصناعية وتلك التى على أبواب ما بعد الصناعية .. بحاجة الى معالجة موضوعية مستقبلية لأصول وظواهر تركيباتها ومقوماتها .. ولن يكون هذا العلاج بطريقة جزئية أو فرعية ، اذ لابد من أن يكون علاجاً شمولياً ذا أبعاد ثلاث : البعد الوقائى — الذى يمحس الماضى لبناء المستقبل ، ويعالج السلبية التى تظهر من حين لآخر فى تركيب المجتمع ، والبعد التكيفى — الذى يمكن المجتمع من التكيف السليم لمواجهة المشكلات الجديدة المتجددة للحضارة والبعد الابداعى — الذى يتضمن استقراء المعطيات الحضارية لإيجاد الحلول البديلة المستقبلية .

٢ — ان الغزو الفكرى يختلف عن التفاعل الحضارى : فالغزو الفكرى جاء نتيجة للغزو الاستعمارى العالمى الذى مر بمراحل متعددة ، بدأ بالبعثات التبشيرية .. ثم عززته الجيوش الغازية ، ثم تبع ذلك انتقاء نواح فكرية معينة من حضارته قدمها لتحقيق هدفه الأساسى وهو استمرار التخلف .. فترحلت الجيوش الغازية بعد أن تركت أبواباً تخدم أغراضها الفكرية أما التفاعل الحضارى فهو جهد ايجابى فى الدراسة والبحث والتمحيص لمعطيات الحضارة الحديثة بغية الاختيار أو الاقتباس أو التكيف مع خصائص وظروف الحضارة المحلية .

٣ — ان الظاهرة التى تسود المجتمعات المعاصرة هى ظاهرة التحدى الحضارى فالتحدى الحضارى يحدث قبل التفاعل الحضارى .. ويكون التحدى بين حضارتين مزدهرتين كما هو الحال بين المجتمعات الغربية والشيوعية أو بين حضارتين : احدهما متفوقة

والأخرى متهاكة كما هو الحال بين المجتمعات المتقدمة الصناعية
والمجتمعات النامية •

٤ — ان الحصيلة الحضارية الحديثة لجميع المجتمعات يمكن أن نعتبرها
حضارة العالم بأسره لا حضارة أمة بعينها أو مجموعة من الأمم
وهذا لا يعنى أن ينكر فضل السبق في العطاء الحضارى العالمى ،
فشعوب العالم أسهمت وتسهم في تغذية هذه الحضارة بدرجات
متفاوتة •

٥ — ان المعطيات الثقافية للحضارة العالمية تمثل الفكر الانسانى بأكمله
ومن الخطأ أن يقف أى مجتمع موقفا سلبيا من ذلك الفكر اذ
ينتج عن هذا الموقف السلبى انحرافات نفسية وفكرية خطيرة :
إما مركب نقص يؤدي إلى الخوف والحذر المفرط والرفض الكلى
لكل ما عند الآخرين ، وإما شعور التسامى الذى يؤدي الى احتقار
ما عند الغير مهما كان على معرفة كثيرة أو قليلة من الحق والخير ،
وهنا يأتى دور المجتمع فى أسلوب الأخذ والعطاء وفق أسس
موضوعية •

فالواجب أن تؤخذ العلوم الطبيعية والانسانية والاجتماعية
بالبحث والتمحيص والفيصل فى ذلك هو مدى مغالبتها وعلميتها •

والمفروض أن يتولى نقد وتمحيص هذه العلوم ، المختصون على
أعلى مستوى من الاختصاص ••• فيؤدى ذلك الى انماء الفكر الانسانى ••
كما يؤدى الى تمييز مقادير الخطأ والصواب فى تلك العلوم والمعارف •

هذه النتائج تستدعى القول أن المجتمع الانسانى بحاجة الى بديل
حضارى يحول دون طغيان جانب على آخر من جوانبه ، كما يؤدى الى
تصاعد الخط البيانى لعنصر الخير فى الفكر الانسانى ، ويمتلك من الصفات
ما يمكنه من استيعاب المعطيات الحضارية المتجددة وتمحيصها وتوظيفها
لخدمة الانسانية ، ان هذا البديل المنشود يمكن أن نحدد ملامحه
بما يلى : —

١ - المقومات الحضارية :

ينبغي أن تتوافر الأساسيات والمتغيرات والمكتسبات ،
فالأساسيات هي مجمل العقائد والتصورات التي يبنى عليها تركيب
المجتمع ، وتكون الأمة والبناء الحضارى ، والمتغيرات هي الفرعيات في
القيم والعادات التي تساعد الأفراد على التأقلم والتكيف مع كل ما يستجد
من معطيات الفكر الانساني والمكتسبات هي الخبرات التكنولوجية
(التقنية) التي يكتسبها أفراد المجتمع في تعرضهم للمعطيات المادية أو
التكنولوجية للحضارة العالمية أو الحضارات الأخرى •

٢ - التكامل الحضارى :

لابد للمسيرة الحضارية من تكامل في تركيبها ويمكننا أن نحدد
هذا التكامل بتوافر العنصر الروحي ، والعقل الابداعي ، والاتساج
المادى • ان هذه العناصر الثلاثة متكاملة تعمل على حفظ التوازن في
المعطيات الحضارية فلا تطفئ المعطيات الثقافية على المادية كما لا تشطح
كل منها في مسارات بلا ضوابط

فالعنصر الروحي يحافظ على سمو المعطيات الحضارية والعقل المبدع
يتحدى الجمود والتخلف والاعتماد على اجتهادات وضعت لتناسب ظروفها
معينة بدلا من استخدامها لوسائل تساعد على الابداع • والاتساج المادى
يأتى نتيجة طبيعية وربما حتمية للابداع العقلى •• وان أى خلل في هذه
المعادلة في التوازن سيؤدى بالمجتمع الى جنوح خطير تجاه عنصر دون
العناصر الأخرى •

وفي تصورى أن خير مقياس لهذا التكامل المنشود هو ما رسمه
مالك بن نبي أحد مفكرى العصر الحديث في العالم الاسلامى حينما ذهب
الى القول بأن ما يتوجب على المجتمع الرائد أن يكون معدا اعدادا روحيا
ليكون قادرا ومؤهلا لقيادة المجتمع الانساني ، وأن تكون لديه مجموعة
المعرفة الانسانية فيتناولها : نقلا ، وتمحيصا ، وتقييما :

(ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولا) • ويذهب
المودودى المفسر المعاصر الكبير فى تحليل ذلك : فالسمع هو نقل المعارف،

والمعلومات • والبصر هو ثمحيصها ببصيرة نافذة وعقل واع • والفؤاد هو الذى يتولى اصدار الحكم أى التقويم لما هو خير نافع ، أو ما هو شر ضار ، من هذه المعارف والمعطيات •

البديل الحضارى :

لقد أصبحت المجتمعات المعاصرة تشعر بالألم الذى صنعه لها حضاراتها حتى كان هذا الألم يؤلف جزءا من كيان تلك المجتمعات •• فظهر المفكرون الذين يشيرون الى المنعطقات الخطرة التى تنتظر مستقبل الحضارة العالمية فى كل مجتمع •• ويمكننا القول بأن الحضارات المعاصرة والحضارات الغاربة فى الماضى والحضارات المستقبلية ليست الا عناصر للملحمة الانسانية منذ فجر القرون الى نهاية الزمن ، فهى حلقات لسلسلة واحدة تؤلف الملحمة البشرية منذ أن هبط آدم على الأرض الى آخر وريث له فيها • انها سلسلة تتمثل فيها جهود الأجيال المتعاقبة فى خطواتها المتصلة فى سبيل الرقى والتقدم •

وان نظرة على هذه السلبية الحضارية لتبين لنا أنها تتضمن حلقات وضاعة من نور تزين كيانها • ان هذه الحلقات تتمثل فى الحقبات التاريخية التى اتيح فيها للتجارب الايمانية أن تأخذ دورها فى ذلك البناء وهى بؤادر حضارية كانت توجه جهود البشرية توجيها هادفا الى التحصيل الحضارى •

ان المجتمعات المعاصرة اليوم رغم ضخامة الحضارة العالمية المعاصرة ما زالت تتخبط فى مشكلات معقدة فهى تتعاطى فى مكان (حبة) ضد الجهل وتأخذ فى مكان آخر (قرصا) ضد الاستعمار ، وفى مكان قصى تتناول (عقارا) يشفى من الفقر : فيرفع شعار حقوق الانسان فى مكان يوجد فيه أبشع صور امتهان كرامة الانسان متمثلة بالعدوان والاستبداد والتفرقة العنصرية ، وتبنى المدارس والمؤسسات الثقافية العلمية ، وتقام على موازاتها مؤسسات انجرائم المنظمة •• لقد أصبحت المجتمعات المعاصرة تنتظر البديل •

ان هذا البديل الحضارى لا بد وأن يشتمل على المقومات الحضارية والتكامل الحضارى التى أوردناها قبل قليل لتتوافر فيه أسباب التقدم المتوازن المتمثلة فى : دستور خلقى ، وذوق جمالى ، ومنطق علمى ، وصناعة تقنية •

فالدستور الخلقى لا يهتم بالأخلاق من الزاوية الفلسفية بل من الناحية الاجتماعية ، هذه الروح الخلقية تولد مع الحضارات لتربط الأفراد بعضهم ببعض •

(وألف بين قلوبهم ، لو أنفقت ما فى الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم • انه عزيز حكيم) •

أما التوجيه الجمالى ، فقد عنى به كل من عنوا بالنفس الاجتماعية من علماء الأخلاق ، أمثال الغزالى ، لدراسة الذوق الجمالى وتقديره فى الروح الاجتماعية فبالذوق الجميل الذى ينطبع فيه فكر الفرد ، يجد الإنسان فى نفسه نزوعا إلى الإحسان فى العمل وتوخيا للكریم من العادات •

وأما المنطق العلمى ، فانه يعنى كيفية ارتباط العمل بوسائله ومعانيه فلا يكون هناك عمل بغير مقاييس مستمدة من واقع الوسط الاجتماعى واما الصناعة التقنية فتعنى الاهتمام بكل الفنون والمهن والقدرات وتطبيقات العلوم التى تدخل فى مفهوم الصناعة •

القيم الحضارية المنشودة :

ان المجتمع المعاصر اذا ما توافرت له مقومات هذا البديل الحضارى وتكاملت فيه دساتيره الخلقية والجمالية والعلمية والتقنية ، فسوف تسوده قيم ايجابية على مستوى فردى ، وجماعى ، وعالمى •

فالقيم الفردية ستشمل :

١ — روح الانجاز والنجاح — حيث التنافس الايجابى لانجاز العمل والنجاح لذات الاتقان لا لتحطيم أو تفشيل الجهود الماثلة فى المجتمع (اتقان العمل عبادة) •

- ٢ — روح النشاط والعمل — حيث يكون الفرد منتجا نشيطا في مجتمعه
لغايات الانتاج والتقدم الاجتماعى — :الاقتصادى (فالسواء
لا تمطر ذهبا ولا فضة) و (اليد العليا خير من اليد السفلى) •
- ٣ — روح الكفاءة والفعالية — كفاءة الأفراد فى قيامهم بواجباتهم ،
وفعالية العلاقات والأنظمة التى تربطهم فى تحقيق تلك الواجبات
(كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته) •

واما القيم الجمعية المنشودة فهى التى تكسب المجتمع الميزات التالية :

- ١ — الالتزام الخلقى — فى السلوك العام لمقاييس المجتمع والحكم على
الأمر العامة بمقياس الخير والصواب (كنتم خير أمة أخرجت
للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر) •
- ٢ — المساواة — فى تعامل أفراد المجتمع دون عوائق الجنس أو اللون
أو الدين أو الطبقات لتوفير تكافؤ الفرص نحو تحسين الأوضاع
الاجتماعية — الاقتصادية « فجميع أفراد المجتمع سواسية فى
الحقوق والواجبات والاعتبارات » •
- ٣ — الحرية والديموقراطية المسئولة حيث يمارس المجتمع حرياته العامة
ضمن مسئولياته فى معادلة سليمة ما بين الحرية والديمقراطية
فلا تستغل أو تطفئ احدهما على الأخرى (لا خير فيكم ان لم
تقولوها ولا خير فينا ان لم نسمعها — متى استعبدتم الناس وقد
ولدتهم أمهاتهم أحرارا —) وأمرهم شورى بينهم) •
- ٤ — التقدم الاجتماعى — حيث تطلعات المجتمع لمستقبل أفضل فى
التخطيط والبناء فلا يحق عطاؤه ولا يجتر ماضيه اجترارا مؤكدا
أهمية المستقبل (وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله
والمؤمنون) •
- ٥ — التوازى الفردى — الجماعى : حيث تحكم علاقات الفرد
بالجماعة بمعادلة متوازنة لا يطفئ جانب منها على الجانب الآخر •

واما القيم ذات الطابع العالمى التى يمدنا بها هذا البديل الحضارى
فيمكن أن تشمل :

١ — النزعة الانسانية : حيث الايمان بالجنس البشرى ومساعدته على
تلمس طريق ايمانية •• فتنزع النزعة الوحشية فى الجنس
البشرى والتى تتمثل اليوم فى الاستعمار والاستبداد والغزو
العسكرى والتمييز العنصرى ولمساعدة الشعوب على معرفة
طريق الخير والرسالة الانسانية •

(وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس) •

٢ — القيمة الانسانية للإنتاج المادى : حيث يرتبط الإنتاج المادى
لتوفير السعادة للإنسان ، ليس بالإصلاح الاجتماعى — الاقتصادى
فحسب بل بتكريس الطمأنينة فى النفس البشرية •

١ — النزعة الانسانية : حيث الايمان بالجنس البشرى ومساعدته على
فلا تتحول العلوم الى دين جديد بل وسيلة لارساء قواعد المسيرة
الحضارية لخير البشرية •

٤ — النزعة اللاعنصرية فى التفوق الحضارى — حيث تتلاشى فكرة
أهمية وجود عنصرين — كعنصر الرجل الأبيض ، أو الرجل
البروليتارى — لتحقيق التقدم الحضارى •

REFERENCE

1. Honigmann, J. Understanding Culture, Harper & Row, N.Y. 1963
2. Bennett, J. (ed.), In Search of Identity, University of Minnesota Press,
3. Laudin, H. , Victims of Culture, Charles E. Merrill, Columbus, Ohio, 1973
4. Harris, C.C. , The Family, Studies in Sociology : No. 4. , G. Allen, 1969
5. Myer, J. The Psychology of Western Culture, Philosophical Lib N Y 1972
6. Bohannan, P. (ed.), Beyond the Frontier, American Museum Sourcebooks in Anthropology 1967
7. Roszak, T. Where The Waste-land Ends, Anchor Books Nn. N. Y. 1968
8. Roszak, T. , The Making of Counter Culture, Anchor Books N. Y. 1968
9. Teffler, A. Future Shock, A National General Co. , N.Y 1971.
10. Bergen, M. The Arab World Today, Anchor Books, N.Y. 1964
11. Patai, The Arab Mind, Scribners, N.Y. 1975
12. Enan, M. , Ibn Khaldun, His Life and Work, Kashmiri Bazar, Lahore, 1975.
13. Grey, A. E. , Class and Personality in Society, Atherton Press, Inc. 1969
14. New York Times Book : European Socialism Since World War I Quadrangle Books, Chicago 1971

وكالات توزيع المسلم المعاصر

الاهرام - ادارة التوزيع
شارع الجلاء - تلفون ٤٦٤٦٠ القاهرة

● جمهورية مصر العربية :

الشركة العامة للنشر والتوزيع والاعلان
تلفون ٤٥٧٧٢ طرابلس ص.ب ٩٥٩
تلفون ٩٢٤٢٢ بنغازي ص.ب ٣٢١
تلفون ٢٠١٠٨ سبها ص.ب ٧١٦

● الجمهورية العربية الليبية :

الشركة التونسية للتوزيع
٥ شارع قرطاج - ص.ب ٤٤٠ - تلفون
٢٥٥٠٠٠ تونس

● الجمهورية التونسية :

مكتبة مكة ص.ب ٦٠ - تلفون ٤٢٦٦٨ الخبر
ص.ب ٤٧٧ - تلفون ٢٤٧٥١ جدة
باب شريف ص.ب ٤٧٢ - تلفون ٢٥٠٩٨ الرياض

● المملكة العربية السعودية :

دار البحوث العلمية للنشر والتوزيع
ص.ب ٢٨٥٧ - تلفون ٤٣١٩٨٢ - الكويت

● دولة الكويت :

الشركة العربية للوكالات والتوزيع
ص.ب ١٥٦ - تلفون ٥٥٧٠٦ - الناصرة

● دولة البحرين :

MUSLIM WELFARE HOUSE
86 Stapleton Hall Road
London N4 4QA Tel. 340 6481 U.K.

● U.K

ISLAMIC BOOKSHOP
Valby Langgade 25
2500 Valby — Kobenhagen — DENMARK

● DENMARK

ISLAMIC BOOK SERVICE
407 N. Ingalls street, Ann Arbor,
Tel (313) 994 — 5752 MICH. 48104 U.S.A.

● U.S.A.

لجنة تسجيل وتجميع

يحيى صالح باسلامة (*)

في نظرتي الى الانجازات الايجابية للحركة الاسلامية المعاصرة (العدد الحادي عشر من مجلة المسلم المعاصر) أشار الأخ الدكتور جمال الدين عطية الى الرصيد البشري الثمين الذي خلفته لنا جهود عشرات الأعوام من (الكوادر العامة التنفيذية) و (الكوادر المتخصصة القيادية) والى رصيد الخبرة والتجربة الضخمة بايجابياتها وسلبياتها ، الى جانب المفاهيم الاسلامية الأصيلة التي قد أصبحت معروفة لدى جميع المسلمين على اختلاف درجاتهم في الاقتناع والاتباع .

ولمح الدكتور جمال الدين أن صورة العمل الاسلامي المقبل ينبغي أن تختلف عما كانت عليه في الماضي من عدة نواح (التنظيمات والتشكيلات) ولكنه أكد أن هذه الخبرة والتجربة التي ذكرها لا يجوز أن تظل حبيسة في صدور وعقول رجال صائرين الى زوال ، فانها ملك للأجيال من بعدهم . فينبغي أن تسجل وتجمع وتكتب وتحلل ، وأن كل تأخير في هذا المجال سيجعلها أدخل في كتابة التاريخ منها في كتابة التجربة الحية المسمرة .

* المركز الاسلامي بجنيف - ميونيخ :

وبالرغم من أن بعض الكتب والمجلات التي تصدر في شتى الأقطار الإسلامية يمكن أن تفيدنا في كتابة التجربة التي ناشد إليها الدكتور جمال الدين فاني أرى ضرورة انشاء لجنة للبحث في هذا الأمر كي نضمن عدم اضاعة خبرة أو تجربة قد لا يدلى بها صاحبها الا بعد مطالبات من مثل هذه اللجنة ، وهذه اللجنة يمكن أن نعتبرها الوسيط بين هؤلاء الرجال أصحاب الخبرة والتجربة وبين الأجيال من بعدهم الذين من حقهم أن يرثوها • ولعلّ لم أكن مخطئا اذا قلت ان مثل هذه اللجنة لا وجود لها في الوقت الحاضر • علما بأن هؤلاء الرجال قد بدأ الواحد تلو الآخر يتساقطون في سلسلة الوفيات •

وكاتب هذه السطور يؤيد الدكتور جمال الدين عطيه في أن التنظيمات والتشكيلات للعمل الاسلامي المقبل ينبغي أن تختلف عما كانت عليه في الماضي ، فان المحن المدممة والأحداث المتلاحقة والتجارب الماضية قد أسفر عنها نوع من التجمع والتوحيد الى حد كبير ، ووعى أكثر رسوخا من ذي قبل •

« فالكوادر » (الاطارات) الذين انبثقوا في شتى الأقطار العربية اليوم أوسع صدورا من رجال أمس ، وكذلك الحال في أندونيسيا وباكستان وايران وتركيا • بل إننا نجد اليوم كوادر في الأقطار الأمريكية والأوروبية والأفريقية لم تكن نجدهم بالأمس •

واننا اذا نظرنا الى التنظيمات الجديدة للطلائع الإسلامية في الولايات المتحدة الأمريكية اليوم لوجدناها أكثر ملاءمة مع ما نحتاجه في عالمنا المعاصر من أساليب الحياة والنمو والعمل المثمر • على أنهم لا ريب سينتفعون كثيرا بالخبرات والتجارب السابقة لو جمعت ونسقت ودرست •

نفه كنب

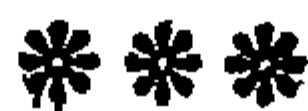
التفسير الإسلامى للتاريخ

تأليف د / عماد الدين خليل
عرض د / عبد الحليم عويس



ليس لنا أن تنجاهل - ونحن بصدد الحديث عن محاولة الدكتور عماد الدين خليل - رصد الخطوط الأساسية في « التفسير الإسلامى للتاريخ » - أن عماد الدين خليل ، قد حاول - عبر عديد من الأعمال - أن يغرس بعض البذور « التطبيقية » في هذا الحقل ، قبل أن يتقدم « لتنظير » تفسير إسلامى للتاريخ مستسقى من المصادر الأساسية للتصور الإسلامى .

ومن هنا فنحن نرى أن وجهى المحاولة ، نظريا وتطبيقيا ، لابد أن يؤخذا في الحسبان ، وكما يجب أن يدرس كتاب « التفسير الإسلامى للتاريخ » يجب أن يدرس في الكفة الأخرى : دراسة في السيرة (وبداخله خطوات في الهجرة والحركة) ، وملامح الانقلاب الإسلامى في خلافة عمر بن عبد العزيز ، وعماد الدين زكى (على الرغم من وصفه الأكاديمى) - وتهافت العلمانية ، وملاحظة في التقليد الحضارى ، وربما غيرها من الدراسات الوجيزة أو الطويلة ، مما يمكن أن تكون قد حالت بيننا وبينها ظروف الاضطراب الحضارى الذى يمر به العالم العربى الآن .



ونحن مضطرون في تقديمنا لهذا العمل الذي نعتبره رائداً في مجاله ، ولم تسبقه الا محاولات يغلب فيها « الاخلاص » « والعاطفة » على القدرة التركيبية التي تتطلب عمقا كيفيا ، يوجب استيعاب الوعي « الطولي » بالتاريخ العام ، والوعي المكثف بالتاريخ الاسلامي في أبعاده المختلفة المستويات : اجتماعية واقتصادية وفكرية وسياسية .

نحن مضطرون : الى أن نعبر نحوا من سبعين صفحة من صفحات الكتاب الذي يقع في أكثر من عشرين وثلاثمائة صفحة من القطع الكبير ..

ففي هذه الصفحات التي وقعت بين « المقدمة التمهيدية » وفصول الكتاب الثلاثة المهمة التي تعالج أبعاد التفسير الاسلامي للتاريخ في « الواقعة التاريخية » من جانب ، وفي « المسألة الحضارية » التي تمثل حركة الحياة البشرية في اطار الحركة الكونية — من جانب ثان ... ثم « سقوط الدول والحضارات » كما يرصدها التفسير الاسلامي — من جانب ثالث ..

في هذه الصفحات السبعين ... يتناول الدكتور عماد الدين — بالعرض المركز — « التفاسير الوضعية الأساسية » وهي في رأيه ثلاثة :

- ١ — التفسير المثالي ، ويمثله « هيجل » .
- ٢ — التفسير المادي ، ويمثله « كارل ماركس » .
- ٣ — التفسير الحضاري ، ويمثله « أرنولد توينبي » .

ويتبع الدكتور عرض كل تفسير بنقد يعتمد فيه على معطيات المسيرة التاريخية وعلى أولويات العقل ، وعلى المصادر التي سبقته لنقد هذه النظريات .

ولكن السؤال الذي يتبادر الى الذهن — من الناحية المنهجية — ما دمنا بصدد تعامل مع التاريخ : هل يقتضي المنهج التاريخي أن تصدر هذه التفسيرات « محاولة رصد ملامح التفسير الاسلامي

للتاريخ ؟ أم أن المنهج كان يوجب على هذه التفسيرات أن تحتل مكانها في مؤخرة الدراسة ، وأن يأتى التفسير الاسلامى - السابق زمانا على الأقل - في صدر الدراسة ؟

ولكى نجيب على هذا السؤال نرى أن نلجأ الى الدكتور عماد الدين نفسه في كتابه - موضوع العرض •

إنه يقول في الصفحة الأولى من المقدمة :

« إن ثمة حقيقة أساسية تبرز واضحة في القرآن الكريم ، تلك هى أن مساحة كبيرة في سورة وآياته قد خصصت (للمسألة التاريخية) التى تأخذ أبعادا واتجاهات مختلفة ، وتدرج بين العرض المباشر والسرد القصصى (الواقعى) لتجارب عدد من الجماعات البشرية ، وبين استخلاص يتميز بالتركيز والكثافة للسنن التاريخية التى تحكم حركة الجماعات عبر الزمان والمكان ، مروراً بمواقف الانسان المتغيرة من الطبيعة والعالم ، وبالصيغ (الحضارية) التى لا حصر لها والتى تتأرجح بين البساطة وبين النضج والتركيب • وتبلغ هذه المسألة حداً من (الثقل) و (الاتساع) فى القرآن الكريم ، بحيث إن جل سورة لا تكاد تخلو من عرض لواقعة تاريخية ، أو إشارة سريعة لحدث ما ، أو تأكيد على قانون أو سنة تتشكل بموجبها حركة التاريخ » فالتفسير الاسلامى حقيقة اذن • • وهو ليس عملاً مفتعلاً ، أو رد فعل للتفسيرات التى ظهرت مثالية أو حداثية • • وهو - أيضاً - ليس جرياً لاهثاً وراء قضية احتلت مكانها من الفكر المعاصر • بل أن الدكتور عماد الدين خليل لا يلبث أن يتحدث عن مأخذ خطير يأخذه على كثير من الباحثين وفلاسفة التاريخ المعاصرين الذين وقعوا فى خطأ القول : بأن ابن خلدون هو أول من مارس هذا المنهج ، وأنه لا توجد قبل ابن خلدون أية محاولة لتفسير التاريخ • ومن عجب أن ابن خلدون نفسه وقع فى الخطأ ذاته عندما أكد فى مقدمته أنه لم يعثر على أية محاولة فى هذا المجال ، وكان أخرى به أن يبين ما يتضمنه القرآن من اشارات تدل على الطريق •

ومع هذا الاغتراف - بالسبق القرآني في هذا المجال - فإن الدكتور عماد الدين ، قد وقع فيما وقع فيه ابن خلدون ، وذلك حين صدر التفسيرات الأخرى ، بما يوهم أنها أسبق ، أو أنها الأصل الذي يقاس عليه مع أن مكانها المنهجي - في رأينا - أن تأتي متأخرة ، ولمجرد المقارنة التي تكشف عناصر الاختلاف ، ومظاهر السطحية ، والجزئية الشديدة المحدودة ، التي حفلت بها هذه التفسيرات ، والتي جعلتها أقل (مكانا) ومكانة عن « التفسير الاسلامي للتاريخ » !!



وفي المنهج أيضا نلاحظ أمرا ، يظهر لأول وهلة ، فإن المادة التي اتكأ عليها الدكتور عماد الدين تكاد تنحصر في « القرآن الكريم » بحيث يبدو وكأنه لا وجود للسنة الشريفة ، مع أن ثمة أحاديث نبوية كثيرة تحدثت عن قضايا تاريخية وكونية ، واستشرفت آفاق المستقبل البعيد ، مما هو ضروري التناول عند المعالجة لموضوع « التفسير الاسلامي للتاريخ » فهل ياترى ترك المؤلف الصديق « السنة » وتاريخ المسلمين بشقيه الصحيح والمنحرف عامداً لاعتبار رآه ؟ وما هو هذا الاعتبار ؟

— وأنا أرى أن الكتاب الذي بين أيدينا أولى به أن يسمى : « التفسير القرآني للتاريخ » لأن « التفسير الاسلامي » يجب أن يعطى للسنة الشريفة دوراً أساسياً عند رسم كل أبعاد صورة « التفسير الاسلامي للتاريخ » !!



وندلف الآن الى مادة الموضوع •

وفي البداية يطالعنا الدكتور بحديث جيد ومركز عن « الواقعة التاريخية » من الوجهة القرآنية •

« وقد قدم لنا القرآن الكريم نماذج عديدة للمعطيات التاريخية ،
وحدثنا عن الماضي في جل مساحاته ، لكى ما يلبث أن يخرج لنا تبيان
الحكمة من وراء هذه العروض ، والى بلورة عدد من المبادئ الأساسية
فى حركة التاريخ البشرى مستمدة من صميم التكوين الحدثنى لهذه
العروض ، تلك المبادئ التى سماها (سننا) ، ودعانا أكثر من مرة الى
تأملها واعتماد مدلولاتها فى أعمالنا الراهنة ونزوعنا المستقبلى .. » •

وعلى امتداد الكتاب الكريم تترى العروض القرآنية مغطية مساحة
زمنية تبدأ من آدم وتنتهى بالرسول محمد عليهما الصلاة والسلام •

بل ان بعض الآيات القرآنية لتتجاوز الماضى والحاضر لكى تمتد
رؤيتها الى المستقبل القريب أو البعيد فى تنبؤات تاريخية يحيطها علم
الله تعالى المطلق بالصدق الكامل والضمانة النهائية •

ولم يغب عن القرآن أن يوضح الأسباب التى من أجلها تنزلت
هذه العروض التاريخية والايحاءات المستقبلية • انها كلها لهدف اثاره
الفكر البشرى ودفعه الى التساؤل الدائم والبحث الدائب عن الحق ،
وتقديم خلاصات التجارب البشرية ، وازاحة ستار الغفلة والنسيان فى
نفس الانسان ، وتقديم البرهان على الحق الواحد الذى جاء به
الأنبياء •

أما النتائج المرادة من هذه العروض : فهى الانسجام عن وعى
بالسنن والنواميس المتمخضة عن دراسة التاريخ البشرى والتمعن فى
وقائعه وأحداثه ، وفى القرآن الكريم لا تتحدد هذه النواميس ولا تأسر
نفسها بتفاصيل وجزئيات موقوتة ، بل تمتد مرنة منفتحة شاملة لكى
تضم أكبر قدر من الوقائع ، وتلامس أكبر عدد من التفاصيل والجزئيات
وتبقى - فى النهاية - الحصيلة النهائية والرموز المكثفة والدلالات
الكبرى لحركة التاريخ • !!



أن هذا الركن من أركان بحث التفسير الاسلامى الثلاثة ، قد اعتمد بصورة مركزة وجيدة على القرآن الكريم فى مسألة « الواقعة التاريخية » بحيث نستطيع القول : إن المؤلف قد استعرض الآيات القرآنية المتعلقة بالموضوع استعراضا شبة كامل ، وأنه قد أحسن استغلال النص ، وكان يتحرك من داخل النصوص ، بوعى وموضوعية ، جعلت خطى النص والتحليل يسيران فى تآزر ، دون أن يطفى أحدهما على الآخر .

ومن خلال هذا تتبع القرآنى لمسيرة « الواقعة التاريخية » تكشفنا لنا رؤية ومعطيات أبرزها مجموعة من السنن الكونية التى دل القرآن عليها ، خلال حديثه عن الأمم السابقة .

ومنها — أيضا — تلمس لأبعاد المسألة الزمنية فى القرآن وهى تلك المسألة التى تخبطت فيها الآراء الحديثة ، منذ بدايات الدادونية الأولى ، بين القائلين بالخلق المباشر المستقل والقائلين بنظرية التطور الطبيعى .

فالقرآن عبر استعمالاته للبعد الزمنى يبين لنا أن الروح الإلهية متجلية فى أصل الابداع ، لكن لا يبين لنا « سر الروح » ولا المدى الزمنى الذى استغرقت عملية ابداع الكون بالنسبة لوعينا البشرى بالزمن ، وهو وعى محدود جدا فى عصرنا . فكيف بالعصور السابقة ؟

لكن الجلى من الآيات القرآنية أن فعل الله كان مباشرا ، وأن هذا الفعل يسخر لتحقيق كلمة الدافعة فى التاريخ قوتين : قوة الطبيعة المادية المنظورة ، وقوة الروح غير المنظورة . وهذه الأخيرة هى الفرق الجوهرى بين التفسير الاسلامى للتاريخ ، والتفسيرات الوضعية . . انها « البعد الغيبى » (وما يعلم جنود ربك إلا هو) .

— ومما نستخلصه من معطيات المسيرة القرآنية فى أطوار « الواقعة التاريخية » — كذلك — أن للانسان دورا أساسيا فى هذه

الواقعة • وهذا الدور هو ما نسميه « بالحرية الإنسانية » التي هي في مداها البعيد جزء من ارادة الله في خلق الأفعال والإحداث •

وفي إطار هذه الحرية تتحرك قوى العقل والارادة والأنفعال والحس والحركة وغيرها من الطاقات التي ركبها الله في الكائن البشرى ••• « ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » « قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم » وعشرات من الآيات القرآنية التي تؤكد على المستويين الفردي والجماعي هذه الحرية المنسجمة — في الوقت نفسه — مع الدوائر الكبرى التي تصنعها مشيئة الله وعلمه الواسع المحيط •

وهكذا فإن « الواقعة التاريخية » تجيء وفق مدرجات ثلاث : أولاها : علم الله ومشيئته ، وثانيها : ارادة الانسان وحركته ، وثالثها : هي المادة الخام التي يخضعها الانسان لارادته في إطار منسجم مع سنن الله الكونية التي لا تتخلف ، وفي حركة متوازنة محكمة الترابط بين دور الفرد ودور الجماعة أى بين النبي والأمة ، والبطل والجماهير والقائده والجنود ، وهكذا •



وفي القسم الثاني من هذا البحث يعالج الدكتور عباد الدين الدائرة الأوسع : دائرة المهمة التي خلق الانسان — أساسا — لممارستها في العالم ، والمركز الذي يحتله في الكون ، إنها « المسألة الحضارية » التي شغلت أذهان ابن خلدون ، وتوينبي ، وهيجل ، وفاركس . وخيل للناس أن هؤلاء وحدهم هم الذين أظهروا هذه المسألة للوجود !! مع أننا — كما يقول المؤلف — نستطيع أن نتلمس البدايات الأولى للمسألة بالرجوع الى حادثة « خلق آدم » باعتبارها حجر الزاوية في الوجود البشرى • بل ان « المسألة الحضارية » — ما دمنا نعنى بها الجانب الحضارى الفاعل المبدع المواجه لكتلة العالم الطبيعية والمستجيب لتحدياتها — تتخطى حادثة آدم الى ما وراءية الوجود الآدمى ••• أى الى سائر العمليات التي أريد

بها تهئية العالم لاستقبال المخلوق الجديد واحاطة نشاطاته المختلفة بالضمانات ، بل الى اليوم الذى قال فيه الله للأرض والسماء : (إئتيا طوعاً أو كرها قالتا أتينا طائعين) .. وبالتالي ، وفي رأى الدكتور عماد الدين فان التاريخ الحضارى هو : « كل فعل تمتزج فيه ارادة الله وروحه وكلمته بالمادة فتصوغها كتلا كونية أو نظما طبيعية ... أو انسانا يتولى خلافة الله فى الأرض لإعمارها » ..

لكن هل يستطيع أى منهج من مناهج فلسفة التاريخ أن يمد الطرف الى هذه المرحلة ؟

— ان التاريخ الحضارى فى القرآن هو وحده القادر على تحقيق هذه الشمولية فى النظرة ، دون أن يعتمد على افتراضات لا جدوى منها .
وحيثما تنقلنا فى أرجاء القرآن الفسيحة لمطالعة الآيات والمقاطع الخاصة بخلق الكون ، وجدناها ترتبط ارتباطا عضويا أصيلا بالدور المنتظر الذى بعث الانسان ليلعبه . هذا من جانب ، ومن جانب آخر بمرحلة تكوين جنين الحياة على الأرض .

أما المسألة الحضارية — فى جانبها الإنسانى — فترتبط بخلق آدم ، وبالظروف والدلالات والإرهاصات والرموز التى صاحبت لحظة تعيينه خليفة لله فى الأرض ، ومجاوبته (إبليس) الذى يمثل التحدى فى المسألة الحضارية ..

ومن خلال « العمل العقلى والجسدى » فى اتجاه الاصلاح أو الافساد تتعدد نتيجة الصراع الحضارى بين الانسان والشیطان . وميدان هذا الصراع هو كتلة العالم والطبيعة التى يدور بينها وبين الانسان حوار دائم وأبدى — هو يسأل دائما ، وهى تتمنع — الى حين — فى الإجابة .

« وفى القرآن الكريم مئات الآيات والاشارات تنفخ فى الانسان هذا المعنى الحضارى العظيم ، وتعلمه أن حواراً مع الطبيعة لن يستمر الا بالسمى والكذب والحركة » .

وسواء استمر الحوار بينهما على أساس « النظر الحسى » أو « الرؤية الداخلية » التى هى البصيرة ، أو « الفكر المجرد » القائم على البراهين والحجج ، فإن الصورة الفذة التى يطررها القرآن عن ذلك التناغم بين الانسان والطبيعة ، وما وراءها ، وذلك التوازن بين تمخير القوى المادية وتصنيعها وبين عبادة الله سبحانه ، وذلك التقابل المبدع بين النزعتين الجمالية والعملية وهذه المعادلة الواضحة بين جبروت الانسان وقدرته الفعالة ، وبين نسبته وضعفه وحاجته الدائمة الى الله ، هذه الصورة الفذة تبقى هى التفسير الوحيد الصحيح لعملية الابداع الحضارى ، وهى الصورة التى لم يستطع أصحاب المذاهب الوضعية الوصول الى تصور أبعادها ، وحضروا أنفسهم فى دائرة محدودة أسموها « الصراع » أو « تحاور النقائص » المتقابلة ، أو الجسد « الديالكتيك » ، مع أن هذه الثنائية — وان صحت لتفسير بعض الجوانب — فانها — بمفهومها الوضعى — لا تصح لتفسير كل الجوانب .

لكن الصراع — مع ذلك — لا يرفضه الاسلام كمبدأ عام أولى « وكذلك فتنا بعضهم ببعض » ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض » ويرى الدكتور عماد الدين أن « هذا الصراع » ممتد فى التاريخ « ولا يزالون مختلفين الا من رحم ربك ، ولذلك خلقهم » — لكن الدكتور المؤلف • الذى عجم هذا المبدأ ، وأخذ على هذه المذاهب حلمها « بيوتويا » أو عالم « البروليتاريا » الهادى ، قد ترك شطرا من الآية « إلا من رحم ربك » ، وهو أيضا عند هذه النقطة قد طبق على عالم الفكر ما طبقه على عالم المادة دون أدنى تفرقة بين المجالين ، ففى رأينا أنه اذا جاز أن يكون الصراع أساسا أوليا من أسس التفسير الاسلامى للتاريخ ، فإنه لا يجوز أن نستسلم لهذه « القدرية الصراعية » والا فان محاولتنا علاج المسألة الحضارية سيكون من باب « الحتميات » العامة التى تحصل فى كثير من جوانبها جزئيات مقهورة لا تنبسطوى تحتها ..

وأيضاً فإن كثيراً من جوانب « الواقع » - وليس « الفكر » الذي نوافق فيه المؤلف تماماً - يمكن أن تدخل تناقضاتها في باب « التعاون » الضروري لاستمرارية الحياة . فالصيف والشتاء ، والليل والنهار ، والمرأة والرجل ، والسالب والموجب ، والفرد والجماعة : كل هذه الثنائيات وغيرها ثنائيات لا تستطيع الحياة أن تستمر دون وجود أى منها . وبالتالي فهي (متقابلة متعاونة) وليست (متقابلة متصارعة) لأنه لا يستغنى عن أى من المتقابلين فيها ، وليس كذلك الشأن في المتصارعين !!

وتبقى المسألة الثالثة والأخيرة من تلك المسائل التى ركز عليها الدكتور فى تصورهِ لأبعاد التفسير الإسلامى للتاريخ « سقوط الدول والحضارات » وهى فى رأينا تشبه أن تكون « حقلاً تطبيقياً » لمرحلة « التنظير » التى سبقت فى المجالين السابقين : مجال (الواقعة التاريخية) ومجال (المسألة الحضارية) .

وفى هذه النقطة تقف الآية الكريمة « وتلك الأيام نداولها بين الناس » كمعلم رئيسى فى التفسير الإسلامى لأسباب سقوط الدول !!

وهذه « المداولة » تستهدف تحييص « الجساعات البشرية » وإثارة الصراع الدائم بينها ، وخلق التحديات المستمرة ، وذلك لكى يتم - فى النهاية - إفراز حركة دائمة متجددة فى التاريخ ، ترفض اليأس والهزيمة ، والتشاؤم ، ما دامت الحياة أشبه « بالناعور » الذى يدور فى جميع الاتجاهات .

والفرق الكبير بين الموقف الإسلامى وغيره : هو أنه يطرح إزاء مسألة سقوط الدول والتجارب والحضارات ، ما يمكن تسميته « الحتمية التفاضلية » أى تقرير حتمية الانحلال والسقوط لكى تنشأ دول وتجارب أخرى - بمجرد أن تستكمل الشروط اللازمة لذلك ، وأولها عملية « التغيير الداخلى » « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » .

وهذا في اتجاه الصعود .. أما في اتجاه السقوط فإن للقضية أبعادا سياسية واقتصادية وأخلاقية وعقائدية ..

فالقاعدة والقيادات — على المستوى السياسي — مسئولة « أكابر مجرميها » و « القوم المجرمين » « فاستخف قومه فأطاعوه .. »

— وعلى المستوى الاجتماعي تبدو ظاهرة التناقض بين القول والفعل واحدة من أبرز أسباب السقوط « ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام ، وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل ، والله لا يحب الفساد » ..

— وللمترفين — وظاهرة الترف بعامته — القدح المعلى في الدفع بمجلة السقوط خطوات الى الأمام ، كما أن فقدان القيم « الأخلاقية » والعزوف عن « الجهاد » كهدف إيماني حركي دائم — من أبرز الأسباب في عملية السقوط .



والحق : إنه شوط طويل ، ذلك الذي قطعه الدكتور عماد الدين في رحلة التفسير الاسلامي للتاريخ ، وهي رحلة ذات أطوال وأعماق هائلة . لازالت تحتاج منه — أكثر من غيره — الى جهود أخرى تمتد الطرف — بعد أن هضمت التوجيه القرآني الحضاري — الى فكر « السنة النبوية » ، وممارسات التاريخ الاسلامي في خطي الصعود والهبوط ، وحركة الحضارة الاسلامية ، في عصورها المتحركة ، والساكنة ..

ولست أحجم عن القول بأن ما كتبه المؤلف في هذه الدراسة يمتاز بالجدة والتكاملية واستغلال النصوص أحسن استغلال . فضلا عن أنه عمل رائد لم يسبقه — في منهجه وتكاملية وقدرته التحليلية — كتاب آخر في المكتبة التاريخية الاسلامية .

وقد أجهد الدكتور نفسه بـ مشكورا — في العناية بالنصوص
القرآنية ، فلم تند أخطاء الا في أقل القليل ، من مثل الآية رقم « ١٠ من
سورة طه » ص (١٢٠) والآية رقم « ٢ ، ٣ من سورة العنكبوت »
ص (٢٤٣) والآية رقم (٤٥ من فاطر) ص (٢٥٨) والآية رقم (٦٩ ،
٧١) من سورة الصافات (ص ٢٣٩ وربما غيرها ، وهي على أية حال
أخطاء قليلة جدا بالنسبة لمئات الآيات التي وردت في الكتاب •

وتعكس (قلتها) كما يعكس الكتاب كله ، الصبر والأناة اللذين
تناول بهما المؤلف قضية من أكثر القضايا تأثيرا والحاحا في عصرنا •
فجزاه الله — عن تاريخنا وديننا — خير الجزاء •

الخبير

* وضعت لجنة مراجعة القوانين لتتناسب مع الشريعة الإسلامية (في السودان) خطة زمنية وموضوعية تتكون من ثلاثة أشواط ينتهي الأول منها في ٣١/١٢/١٩٧٧ والثاني في ٣٠/٤/١٩٧٨ والثالث في ٣١/٧/١٩٧٨ .

وفيما يلي بيان الخطة :

١ - يراعى في هذه الخطة جملة الاعتبارات التالية :

(أ) يسر تطبيق مقتضى الشريعة من حيث قلة الحرج العلى الناشئ من طرح النظم القائمة لئلا يقع ارتباك عظيم أو فساد في ضرورات حياة الناس ونظام الدولة .

(ب) يسر تناول الأحكام الشرعية ووضع منهج لتطبيقها من حيث لا يستدعى الأمر اجتهاداً فقهيّاً كثيراً في استنباط الأحكام أو دراسة مستفيضة لظروف الواقع أو مشقة في تحضير النظم الادارية التى تحقق تمكين الشريعة في الواقع .

(ج) مراعاة الرأي العام من حيث الاستجابة العاجلة لتعلقه بالمشهور من الأحكام الشرعية وتبشيره بالأدعى الى التقبل الفوري ومن حيث الحاجة لتقديم التوطئة الارشادية لبعض الأحكام التي يخشى أن تحدث فتنة اذا أخذ بها قبل ترقية فهمهم لحكمة الشرع وتربية استعدادهم لاحتمال وقع تكاليفه .

٢ - الترتيب :

(أ) الشوط الأول : ينتهى فى ٣١/١٢/١٩٧٧ :

- ١ - تقنين القواعد الأصولية الفقهية .
- ٢ - رفع الربا عن القروض الاستهلاكية والمعاملات الخاصة .
- ٣ - حظر اشهار الخمر وأسباب تداولها وتعاطيها .
- ٤ - طرح الاجراءات الجنائية العادية على حرمان الإنسان وحرياته العامة .
- ٥ - قانون حماية الفضيلة والآداب العامة .
- ٦ - سد مسالك الفساد فى الوظيفة العامة .
- ٧ - تنظيم صندوق الزكاة على أساس طوعى .

(ب) الشوط الثانى : ينتهى فى ٣٠/٤/١٩٧٨ :

- ١ - تكييف التأهيل القانونى نحو الشريعة وتوحيد النظام القضائى ومراجعة نظم المحاماة والافتاء والاحتساب فى ضوء النظم العدلية الاسلامية .
- ٢ - ايجبات الزكاة وتنظيم مواردها ومصارفها وادراجها فى النظام الضريبى العام .
- ٣ - تنظيم القروض والمضاربات التجارية والائتمانية فى اطار مصرفى لا ربوى .

- ٤ - مراجعة نظم الأوقاف والموارث •
- ٥ - معالجة ظواهر البغاء وقطع أسبابه •
- ٦ - حظر ضروب المعاملات المنطوية على الميسر •

(ج) الشوط الثالث : ينتهى فى ١٩٧٨/٧/٣١ :

- ١ - مراجعة القوانين الجنائية وتنظيم وتطبيق الحدود الشرعية •
- ٢ - تقويم النظام الرأسمالى للتأمين وبسط التأمين فى حياة المجتمع كافة •
- ٣ - مراجعة القوانين المدنية العامة •
- ٤ - مراجعة قوانين الاجراءات المدنية والاثبات •
- ٥ - تقويم الآداب والنظم فى الحياة الاجتماعية عامة •
- ٦ - أحكام متفرقة •

الشركة المصرية للطباعة والنشر
رقم الايداع ٦٠٣٩ / ١٩٧٨

Vol. 4 No. 13 JANUARY — FEBRUARY — MARCH 1978

ALMUHARRAM — SAFAR — RABI AWWAL 1398

al-Muslim al-muwaṣṣir

The Contemporary Muslim